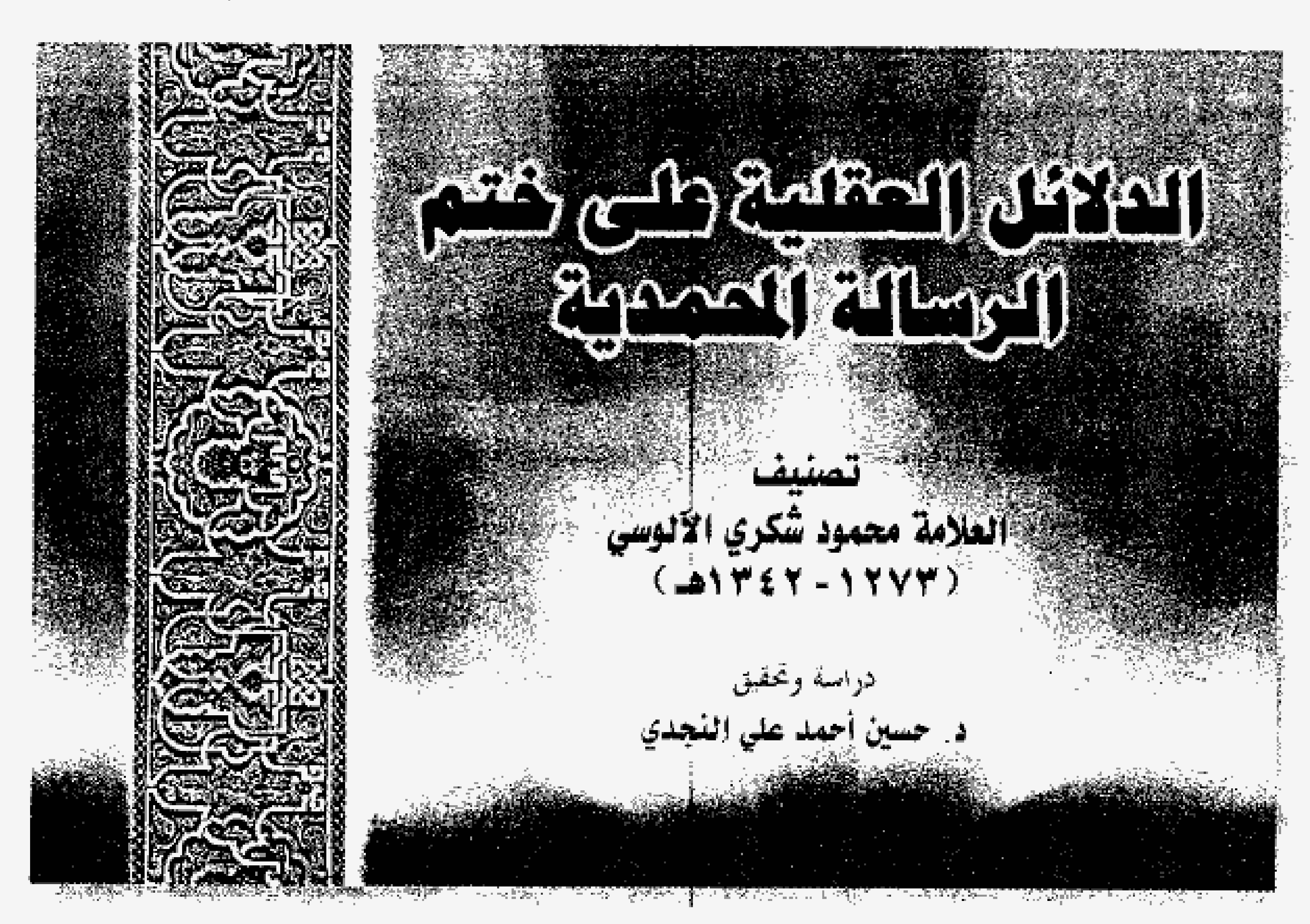






إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنَّ الله تعالى بعث نبينا محمداً ﷺ بالحق بشيراً ونذيراً وأيَّده بالحجج البالغة والمعجزات الظاهرة، فقطع بذلك دابر الكافرين، وألجم أفواه المعاندين، وأبطل شبه الزائغين، فما غلبه أحد بحجة، بل دحضت حججهم

الواحدة تلو الأخرى مع تضافر جهودهم وإجماعهم على تكذيبه ﷺ، ولكن أنّى للباطل أن يظهر على الحق ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨]، وظلّ المكذبون من اليهود والنصارى والمشركين يضربون له الأمثال ليصدُّوا الناس عن اتباع النور الذي جاء به من ربه، فرموه تارة بالسحر وتارة بالكذب وتارة بالشعر وتارة بأنه أضغاث أحلام، فدفع الله باطلهم وهتك الأستار عن عيوبهم ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣]، فتحداهم أن يأتوا بمثله ثم بعشر سور مثله ثم بسورة واحدة فعجزوا، وقد أخبر سبحانه أنهم لن يستطيعوا فقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وما زال الشانئون من أعداء الإسلام وأذنابهم من المنافقين سائرون على نهج أسلافهم في معاداة الإسلام ونبيه ﷺ والمسلمين في كل زمان ومكان، يلقون بالأراجيف ويثيرون الشُّبه فيُقيِّض الله لهؤلاء المغرضين علماء ربانيين أخلصوا لربهم وباعوا أنفسهم لله، فنفوا الكذب وكشفوا الزيف ودحضوا الشُّبهات وبينوا الحق كما قال ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»[1].

والرسالة التي بين أيدينا لواحد من أكابر علماء المسلمين في عصره، شهدت له تصانيفه ومشايخه وتلاميذه بسعة اطلاعه وغزارة علمه، دافع عن دينه في جميع مصنفاته دفاعاً شديداً، وقرن ذلك بالدفاع عنه بلسانه، فحورب وأوذي، ولم يثنه ذلك عن السير قُدماً في ابتغاء رضوان الله وإن سخط الناس، وموضوع الرسالة كما ذكر المصنف في مقدمتها تتناول: إثبات خاتمية نبوة نبينا محمد ﷺ، وأن شريعته باقية مصانة من النسخ، إذ لا شريعة بعدها محفوظة من التحريف إذ تكفَّل الله بحفظها، وأن نبينا

---

(١) حسن لغيره. ينظر: البدعة وأثرها السيىء في الأمة: ١٢٧ للشيخ سليم بن عيد الهلالي، دار ابن حزم، ط١ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

محمداً ﷺ أفضل الأنبياء وأن دينه أشرف الأديان، وأن شريعته ناسخة للشرائع التي قبلها.

ولعل سبب الرسالة ما أشار إليه المصنف في المقدمة أن بعض أفاضل أحبار المسيحيين طرح سؤالاً ـ لم يذكره المصنف ـ نشرته جريدة «الحبل المتين» فجاءت هذه الرسالة جواباً مختصراً لذلك السؤال، وهذا يؤكد ما قلنا؛ أن أعداء الإسلام يلقون الشبه في كل زمان ومكان، فمن قبل ألّف الإمام القرافي (ت ٦٨٤) كتابه القيم «الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على اليهود والنصارى» جواباً على رسالة ألّفها بعض النصارى[١]، ومن بعده ألّف الإمام الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية سفراً جليلاً سماه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» تلاه تلميذه العلامة ابن قيم الجوزية فألّف كتابه البديع «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» رداً على أسئلة أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين، ولم يكن عند ذاك المسلم جواب شافٍ[٢] فقام الإمام ابن القيم نصرة لله ولكتابه ولرسوله فألّف كتابه المذكور. وقد ذكر هذا الإمام العلم أنه قد جرت له مناظرة بمصر مع أكبر من يشير له اليهود بالعلم رأيت من المفيد أن أنقلها بحروفها لما فيها من فوائد وهي تدل على سيلان ذهن الإمام ابن القيم وقوة حجة علماء المسلمين وضعف شبه المخالفين لدين الإسلام.

يقول ابن القيم: «قلت له في أثناء الكلام: أنتم بتكذيبكم محمداً ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة. فعجب من ذلك وقال: مثلك يقول هذا الكلام! فقلت له: اسمع الآن تقريره؛ إذا قلتم أن محمداً ملك ظالم قهر الناس بسيفه وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثاً وعشرين سنة يدّعي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة، ويقول: أمرني الله بكذا، ونهاني عن كذا

(١) الأجوبة الفاخرة: ١٧.

(٢) هداية الحيارى: ١٨.



وأوحى إليّ كذا؛ ولم يكن من ذلك شيء، ويقول: إنه أباح لي سبي ذراري من كذّبني وخالفني ونساءهم، وغنيمة أموالهم، وقتل رجالهم؛ ولم يكن من ذلك شيء، وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم، فلا يخلو إما أن تقولوا أن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا أنه خفي عليه ولم يعلم به، فإن قلتم لم يعلم به نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من عَلم ذلك أعلم منه. وإن قلتم: بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته واطلاعه عليه، فلا يخلو إما أن يكون قادراً على تغييره، والأخذ على يده ومنعه من ذلك، أو لا، فإن لم يكن قادراً فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادراً، وهو مع ذلك يعزُّه وينصره ويؤيده ويُعليه ويعلي كلمته، ويجيب دعاءه، ويمكّنه من أعدائه، ويظهر على يده من أنواع المعجزات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحدٌ بسوء إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له... فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء فضلاً عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه، وهذا عندكم شهادة زور وكذب! فلما سمع ذلك قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفترٍ بل هو نبي صادق من اتبعه أفلح وسعد، قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟ قال: إنما بُعِث إلى الأميين الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه. قلت له: غُلبتَ كل الغلب، فإنه قد علم الخاص والعام أنه رسول إلى جميع الخلق، وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، وإذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به؛ فأمسك ولم يحر جواباً».

فهذا هو شأن علماء المسلمين المخلصين في كل زمان ومكان، الذب عن دينهم بالبرهان القاطع، والحجة البالغة، لا يخافون في الله لومة لائم، وفي العصر الحديث مهر أعداء الإسلام في صياغة الشبه والتلاعب بالألفاظ والمصطلحات، فحريٌ بأهل العلم والمثقفين من أبناء الإسلام أن يقرؤوا ما سطره علماؤهم الأفذاذ ويعرفوا الشبه التي كانت تلقى على المسلمين.

فإن كثيراً من شُبه المخذولين اليوم - إن لم أقل جلّها - مستمدة من شُبه الهالكين قبلهم، ويربطون الماضي بالحاضر في دراسة جادة واعية لمعرفة حال الخصم، واستخدام أفضل الطرق للرد عليه بالحجة والبرهان بعيداً عن التعصب، على وفق منهاج النبوة. والله الهادي إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.



ترجمة مختصرة للآلوسي

❑ اسمه ونسبه وكنيته ولقبه:

هو جمال الدين أبو المعالي محمود شكري بن عبدالله بهاء الدين أبي الثناء شهاب الدين محمود الحسيني[1] الآلوسي البغدادي[2] ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب ﵄.

و(الآلوسي) نسبة إلى قرية (آلوس) قرب قضاء (عانة)[3]، و(عانات) التجأت أسرته إليها عندما داهم هولاكو بغداد، واشتغلت هذه الأسرة

---

(١) كتب المصنف رحمه الله تعالى نسبه بخط يده إلى سيدنا علي ﷺ تحت عنوان: (ذكر نسب جامع هذه الحروف) ص ١٨١ - ١٨٣ من الرسالة التاسعة عشرة من المجموع الذي يحتوي على ٢٤ رسالة منها الرسالة التي بين أيدينا، والمجموع كان في مكتبة المتحف العراقي تحت رقم ٢/٨٥٦٦ ثم نقلت جميع مخطوطات المتحف إلى ما سمي دار صدام للمخطوطات، وقد فصل كل رسالة من هذا المجموع على حدة، وقد نقلت هذه المخطوطات قبل الغزو الأمريكي إلى أماكن إخلاء وحفظت في صناديق خاصة مقفلة بإحكام، وقد بيع بعضها بعد الغزو، فالله أعلم بمصيرها الآن، وقد استنسخت هذه الرسالة مع أخرى للمصنف هي (سعادة الدارين في شرح حديث الثقلين) قبل الغزو الأمريكي للعراق.

(٢) ترجمت للمصنف مصادر عديدة منها:

الأعلام: للزركلي: ٤٩/٨، أعلام العراق: ٨٨، معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة: ١٦٩/١٢، تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان: ٤٩٢/٤، شخصيات عراقية: خيري أمين العمري: ٧/١، إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد: للآلوسي مقدمة المحقق عدنان عبدالرحمن الدوري: ١١ - ٤٣، صب العذاب على من سب الأصحاب: للآلوسي مقدمة المحقق عبدالله بو شعيب: ١٣ - ٢٥.

(٣) عانة: بلدة مشهورة في محافظة الأنبار في العراق وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان: ٧٢/٤.

بالعلم، ونبغ منها علماء، كان أشهرهم أبو الثناء شهاب الدين محمود الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ) جد المصنف صاحب التفسير الكبير المسمى (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) كما اشتهر بالعلم من هذه الأسرة عبدالله والد المصنف، والمصنف وغيرهم رحمهم الله جميعاً، ثم انتقل جده إلى بغداد، واتخذت أسرته دارها في محلة العاقولية[١].

❑ ولادته:

ولد أبو المعالي صباح يوم السبت التاسع عشر من شهر رمضان سنة ١٢٧٣هـ الموافق الرابع عشر من أيار ١٨٥٦م في دار جده أبي الثناء صاحب التفسير بجوار مسجد العاقولي ببغداد جانب الرصافة[٢].

❑ بعض شيوخه:

١ - تتلمذ الآلوسي على أبيه عبدالله بهاء الدين (ت ١٢٩١هـ)، فأخذ عنه مبادئ العلوم اللسانية والدينية، وجود عليه الخط بأنواعه، وورث منه فقه النفس، وحسن السمت، وصفاء الطوية، وحب الأدب والعلم، ولم يستنفد ما عنده حتى فجع بموته في الثالث من شعبان سنة (١٢٩١هـ)[٣].

٢ - بعد وفاة أبيه كفله عمه العلامة نعمان خير الدين الآلوسي (ت ١٣١٧هـ) وعني بتهذيبه وتعليمه عناية أبيه به[٤].

---

(١) أعلام العراق: ٧، شخصيات عراقية: ٧/١، محمود شكري الآلوسي وآراؤه اللغوية: ٢٨.

(٢) معجم المؤلفين: ١٦٩/١٢، أعلام العراق: ٨٨، شخصيات عراقية: ٧/١، محمود شكري الآلوسي: ٥٠.

(٣) أعلام العراق: ٩١، معجم المؤلفين: ١٦٩/١٢، شخصيات عراقية: ٧/١، البغداديون: ٢٨.

(٤) المسك الأذفر: ٥/١، محمود شكري الآلوسي: ٤٠، البغداديون: ٢٧، مقدمة إتحاف الأمجاد: ١٣.



٣ ـ الشيخ إسماعيل بن مصطفى الموصلي (ت ١٣٠٢هـ) درس عليه الحديث والأصول في جامع الصاغة[1].

٤ ـ الشيخ العلامة عبدالسلام أفندي ابن محمد سعيد النجدي الشهير بـ(الشواف) (ت ١٣١٨هـ) من كبار تلاميذ الآلوسي المفسر جد المصنف[2].

❑ بعض تلاميذه:

١ ـ العلامة الشيخ محمد بهجت بن محمود بن عبدالقادر الأثري، أصله من ديار بكر (ت ١٤١٧هـ)[3].

٢ ـ الشاعر معروف عبدالغني الرصافي، وهو الذي لقبه بـ(الرصافي) (ت ١٣٦٤هـ ١٦ آذار ١٩٤٥م)[4].

٣ ـ العلامة طه بن صالح الفضيل الراوي (ت ١٣٦٥هـ تشرين الأول ١٩٤٦م)[5].

٤ ـ عبدالعزيز الرشيد بن أحمد بن رشيد البداح الأديب الكويتي (ت ١٣٥٧هـ)[6].

❑ منزلته العلمية:

عرف أبو المعالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من خلال دراسته؛ بالذكاء والتفوق على أقرانه في جميع العلوم التي درسها، ولذلك تأهل للتدريس مبكراً، وقد تصدر

---

(١) المسك الأذفر: ١٣٦/١، مقدمة إتحاف الأمجاد: ١٣.

(٢) المسك الأذفر: ١٣٢/١، محمود شكري الآلوسي وآراؤه اللغوية: ١١٤، البغداديون: ١١٤.

(٣) مقدمة إتحاف الأمجاد: ١٦.

(٤) الأعلام: ٢٦٨/٧، معجم المؤلفين: ٣٠٦/١٢، أعلام العراق: ١١٣.

(٥) الأعلام: ٢٣٢/٣، معجم المؤلفين: ٤٣/٥.

(٦) المصدر السابق: ٢٤١/٥، أعلام العراق: ١٧٣.

للتدريس في داره بالعاقولية مدة ثم في جامع عادلة خاتون، ثم عيِّن مدرساً رسمياً في مدرسة داود باشا - آخر وزراء المماليك ببغداد - في جامع الحيدر خانة، ثم أضيف إليه التدريس في جامع سلطان علي فيدرس فيه مساءً وفي الحيدر خانة صباحاً، ثم وكل إليه أمر مدرسة مرجان بعد وفاة العلامة علي علاء الدين الآلوسي[1] ابن عم المصنف، وأصبح رئيس المدرسين بها سنة ١٣٤٠هـ وترك مدرسة جامع سلطان علي لابن أخته إبراهيم ثابت الآلوسي[2].

❑ مؤلفاته:

كان العلامة أبو المعالي كثير التأليف في شتى فنون العلم والمعرفة، ومن مؤلفاته ما هو مطبوع، وأكثرها ما زال مخطوطاً ومنها مفقود، ولغرض الاختصار أحيل القارئ الكريم إلى كتابين ذكرا مؤلفاته هما:

١ - مقدمة إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد: ٣٥ - ٤٢.

٢ - مقدمة صب العذاب على من سب الأصحاب: ١٩ - ٢٣.

❑ تأثره بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله:

تأثر العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية تأثراً كبيراً من خلال اهتمامه بمؤلفاتهما القيمة وسيره على نهجهما في لزوم السنة وإنكار البدع، يقول كامل الرافعي: «كما لم أر أحداً يقدر مؤلفات ابن تيمية وابن القيم قدرهما مثلهما» يقصد: محمود شكري الآلوسي وابن عمه علي الآلوسي[3]. وكان من آثار ذلك مطالبته

---

(١) هو نجل العلامة نعمان الآلوسي، اشتغل بالقضاء في فلسطين وبعلبك ثم في العراق بالعمارة والديوانية وبغداد، أرسله أبوه إلى الملك صديق حسن خان سنة ١٢٩٩هـ لطبع كتبه وكتب أبي الثناء (ت ١٣٤٠هـ).

(٢) أعلام العراق: ٩٢، الأعلام: ٨/٤٩، شخصيات عراقية: ١/٨.

(٣) شخصيات عراقية: ١٠ نقلاً عن مجلة المنار: ٤٦ م ١١، محمود شكري: ٧٦ - ٨٦.



بتطهير الدين من البدع[1]، والضلالات، فأدى ذلك إلى غضب خصومه، فأخذوا يكيدون له ورموه بتهم شتى، منها: أنه يدعو إلى الخروج على السلطان، والدعوة إلى مذهب جديد يناصب كل الأديان، فأغروا والي بغداد (عبدالوهّاب باشا) وطلبوا منه أن يستأذن الباب العالي بنفيه إلى الخارج، فنفاه إلى بلاد الأناضول[2] هو وابن عمه ثابت نعمان الآلوسي والحاج حمد الصافي النجدي، وأُخذ الثلاثة مخفورين ليلة **٢٢** محرم **١٣٢٣**هـ، ولما وصلوا الموصل في طريقهم إلى منفاهم استاء أهلها لما للرجل من مكانة كبيرة في نفوسهم فأرسلوا إلى السلطان طالبين الصفح عنه[3]، واتفق أن أعلن الدستور في هذه المدة، فصدر العفو عنهم وعادوا إلى ديارهم بعد أن قضوا شهرين في الموصل[4].

❑ مرضه ووفاته:

أُصيب العلامة أبو المعالي سنة **١٣٣٧**هـ برمل في المثانة، فلم يهتم به، وظن أنه قد زال، وبعد عامين اشتد به الوجع، ثم ذهب عنه فترة، وعاوده في أواخر **١٣٤١**هـ، فانقطع عن التدريس أياماً، ونصحه الأطباء بترك القراءة والمحادثة والاشتغال بما يُتعب الذهن، فلم يلتفت إليهم[5]. ثم أُصيب في أول الثلث الأخير من رمضان سنة **١٣٤٢**هـ بذات الرئة، فشعر بدنوّ أجله، ولبث ثلاثة عشر يوماً وهو يصارع المرض، فتوفاه الله تعالى عند أذان الظهر يوم الخميس الرابع من شوال سنة **١٣٤٢**هـ، الموافق **٨** آيار **١٩٢٤**م[6] رحمه الله وطيّب ثراه وجعل الجنة مأواه.

---

(١) أعلام العراق: ١٠١.

(٢) الأعلام: ٤٩/٨.

(٣) الأعلام: ٤٩/٨، أعلام العراق: ١٠١، محمود شكري: ٨٧، شخصيات عراقية: ١٠.

(٤) محمود شكري: ٨٧ ـ ٩٠، شخصيات عراقية: ١٢/١.

(٥) أعلام العراق: ١٠٧، شخصيات عراقية: ١٢/١.

(٦) محمود شكري: ٣، أعلام العراق: ١٠٧، شخصيات عراقية: ٧/١.

□ رثاء الشعراء له:

رثاه مجموعة من الشعراء منهم:

١ ـ تلميذه معروف الرصافي، رثاه بقصيدتين:

الأولى: بعنوان (واشيخاه) أنشدها في دار الآلوسي وعدد أبياتها **٣٨** بيتاً مطلعها:

أزمعت عنا إلى مولاك ترحالا   لما رأيت مناخ القوم أوحالا

وفيها:

(محمود شكري) فقدنا منك حبر هدى   للمشكلات بحسن الرأي حلاّلا
قد كنت للعلم في أوطاننا جبلاً   إذا تقسم فيها كان أجبالا

ورثاه أيضاً بقصيدة عنوانها (في موقف الأسى).

٢ ـ العلامة محمد بهجت الأثري بقصيدة عنوانها (واحر قلباه) وعدد أبياتها (٦٧) بيتاً[١].

٣ ـ محمد بهجت البيطار بقصيدة عدد أبياتها (٢٥)[٢].

٤ ـ ناجي القشطيني بقصيدة قال فيها[٣]:

لم يثنك الحكام عن إرشادنا   حتى أحاطت في حماك جنود
ونُفيت عن بغداد غير مروَّع   حاشا تراع من الذئاب أسود
ولكم أُهين المصلحون لغاية   فنيتْ وهم في العالمين خلود

---

(١) أعلام العراق: ٢٠٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٧.

وصف النسخة المخطوطة

اعتمدت في تحقيق هذه الرسالة على نسخة واحدة هي مخطوطة دار صدام (سابقاً) المنقولة من مكتبة المتحف العراقي، وقد اكتفيت بها ولم يعبها اليتم والوحدة؛ لأنها بخط المؤلف رحمه الله تعالى، وليس فيها ما يضطر المحقق إلى نسخة أخرى؛ لسلامتها من النقص والخرم، وقد كتبها المؤلف بطريقة التعقيبة وهي أن يكتب الكلمة الأولى من الصفحة اللاحقة تحت آخر السطر الأخير من الصفحة التي قبلها.

وعدد صفحات المخطوطة (٣٨) صفحة.

وعدد الأسطر في كل صفحة (٢١) سطراً، وعدد كلمات كل سطر ما بين (٩) كلمات إلى (١٥) كلمة، وخطها: فارسي، جيد.

قياس الصفحات: ٢١ × ١٣ سم.

وتاريخ الفراغ من كتابتها: يوم السبت ٧ ذي القعدة ١٣١٠هـ.

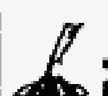
❑ منهجي في تحقيق الرسالة:

١ ـ حافظت على النص ولم أتدخل فيه إلا بقدر يسير ككتابة بعض الكلمات ـ وهي قليلة ـ وفق القواعد الإملائية المتبعة اليوم.

٢ ـ عزوت الآيات إلى مواضعها من السور وذكرت أرقامها.

٣ ـ خرجت الأحاديث النبوية من مظانها مع بيان درجة الحديث إن كان في غير الصحيحين.

٤ ـ صححت ألفاظاً وردت في النص مخالفة لقواعد النحو سهواً ـ لأن المصنف حاذق في النحو ـ وأشرت إلى التصحيح.



٥ ـ علّقت على بعض المواضيع التي رأيت في التعليق عليها فائدة.

٦ ـ أضفت بعض العناوين لغرض الإيضاح وجعلتها بين حاصرتين هكذا [ ].

٧ ـ شرحت بعض الألفاظ شرحاً لغوياً.

٨ ـ عرّفت المصطلحات التي ذكرها المصنف تعريفاً لغوياً وتعريفاً اصطلاحياً.

٩ ـ حرصت على بيان بداية الصفحة ونهايتها في متن المخطوطة، فوضعت أرقاماً تدل على ذلك، ورمزت للوجه الأيمن من الورقة بالرقم مقروناً بالحرف (أ)، وللوجه الأيسر منها بالرقم مقروناً بالحرف (ب).



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منّ على عباده بصنوف النعم وأنواع الآلاء، والصلاة
والسلام على سيد الكل خاتم الرسل والأنبياء، وعلى آله وأصحابه الذين هم
نجوم الاهتداء ما دامت الأرض والسماء. أما بعد فهذه رسالة
مختصرة تتضمن إثبات خاتمية نبينا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم
وبقاء شريعته المطهرة إلى قيام الساعة مصونة من النسخ والتحريف
وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أشرف الأنبياء قدرا، وأعظمهم فضلا
وأرفعهم ذكرا، وأن دينه أشرف الأديان، وأن شريعته ناسخة
لشرائع من قبله من رسل الرحمن، بدلائل قطعية، وبراهين عقلية
تخصص الدين الإسلامي بإزائه، ولا تتعداه إلى ما سواه.
وفيها الجواب عن السؤال الذي نشر في صحيفة الحبل المتين من قبل
بعض الأفاضل أحبار المسيحيين، وعسى الله أن يوفق لبسط الكلام فيه
في غير هذا المقام، وإفراده بكتاب مفصل تنبسط له النفوس وتقر
به الأفهام، والله أرجو أن يكون ما كتبته في هذه الرسالة مفيدا للبيب
الفاضل المنصف، ووسيلة للناظر الباحث عن الحق ويعرف
والله المستعان، وبه نعتصم من الخطأ والنسيان.

بيان أن دين محمد صلى الله عليه وسلم آخر الأديان وأنه خاتم النبيين عليهم السلام

اعلم أن هذه المسألة إنما تتضح غاية الاتضاح بتمهيد أمور:
الأول أن الشرائع والنبوات هي دعوة الخلق إلى الحق وإرشادهم
إلى مصالح المعاش والمعاد، وإعلامهم بالأمور التي تعجز عنها عقولهم
وتقرير الحجج القاطعة وإزاحة الشبه الباطلة، وبذلك ينتظم أمر

الصفحة الأولى من المخطوطة

الجمهور ويتم قانون اجمع عليه للتعاون فيما يضطرون اليه ويحتاجون
اليه اذ لم يكن فيهم عدل يتفق الجميع عليه بتراضٍ كلية وهي علم الشرائع
التي لا بد لها من واضع يقررها على ما ينبغي معصوماً عن الخطأ وهو
الشارع. فيختل نظام الجمهور، ويحصل الناس في ورطة الهلاك
[illegible]. ثم ان الشارع لا بد ان يمتاز باستحقاق الطاعة وهو انما يتميز
بمعجزات تدل على ان شريعته من عند ربه وهي المعجزات.

فالانبياء صلوات الله عليهم اجمعين هم رسل الله تعالى الى عباده باوامره
ونواهيه زيادة على ما اقتضته العقول من واجباتها والزاماً لما
جوزته من مباحاتها لما اراده الله تعالى من كرامة العاقل وتشريف
افعاله، واستقامة احواله، وانتظام مصالحه، [illegible]
للمكلف [illegible] على المعرفة ليجعل جلياً، وبالعواقب عليماً، لان
الخلق [illegible] لا يدركون مصالحهم بانفسهم، ولا يشعرون بالعواقب
[illegible] ولا ينزجرون مع اختلاف انفسهم، دون ان يرد
عليهم [illegible] المرسلين، واخبار القرون الماضين، فتكون
[illegible] الله تعالى فيهم مستقلة، وحدوده فيهم متبعة، واوامره فيهم
[illegible] ووعيده فيهم جارياً، وقصص من غبر من الامم [illegible]
[illegible] الطرف الاسماع والمعاني [illegible] اذا
[illegible] ان استمدتها العقول [illegible] علماً، [illegible]
[illegible] الكريم خاطر والكريم خاطر الكريم تفكراً،
والكريم [illegible] الكريم علماً والكريم على الكريم عملاً لم يوجد من بعثة
الرسل بدل ولا منهم في انتظام المصالح بدل.

الصفحة الثانية من المخطوطة

التي بعد تنقسم الى ثلاثة اقسام قسم يجب ان يحكم في شرعنا بما قبله بلا شك
انه ما نسخ اولا . والقسم الثاني الاحكام من قبلنا فلا شك انه لا نسخ فيه وانما نشك
فيه انما شرعنا فقط بما نظن بعدم شمول شرائع من قبلنا لنا . وانما شرعنا
شرائع من قبلنا اذ انه لو انا مكلفون بشرائع من قبلنا في كل حال فيعم
ان شرعنا والشرائع من قبلنا .
القسم الثالث ما شك فيه في شرعنا اذ ثبت فيه حكم بشريعة من قبلنا
فهل نكلف بهذا القسم بالحكم الذي ثبت فيه لا في شريعتنا ام لا
في ذلك خلاف بين العلماء . وتحرير محل النزاع مفصل في كتب الاصول
وفي الباب الثالث من كتاب اظهار الحق كلام مفيد في اثبات
النسخ وان الشريعة المحمدية ناسخة لما قبلها من الشرائع .
يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة
ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء .
آخر الكتاب بعون عناية الله
كان الفراغ من كتابة هذه الرسالة يوم السبت بعد الزوال لسبع
خلون من ذي القعدة الحرام من السنة التاسعة عشرة بعد الثلاثمائة
والالف من الهجرة المباركة . وذلك على يد مؤلفها المستعين بالله
محمود شكري بن عبد الله بن ابي الثناء شهاب الدين
السيد محمود الآلوسي البغدادي
والحمد لله على نعمه

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

نص رسالة:

الدلائل العقلية
على
ختم الرسالة المحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منَّ على عباده بصنوف النِّعم، وأنواع الآلاء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان ما دامت الأرض والسماء.

أما بعد: فهذه رسالة مختصرة تتضمن إثبات خاتمية نبوة سيدنا ومولانا محمد ﷺ وبقاء شريعته المطهرة إلى قيام الساعة مصونة من النسخ[1]

(١) النسخ في اللغة: ورد على عدة معانٍ، منها: الرفع والإزالة، تقول: نسخت الشمس الظل، وانتسخته: أزالته. ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢]. ومنها: التغيير، تقول: نسخت الريح آثار الديار: غيرتها. ومنها: التبديل، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، ومنها: النقل، تقول: نسخ الكتاب وانتسخه واستنسخه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]، ومنها: التحويل، ومنها: تناسخ المواريث أي تحويل الميراث من وارث إلى آخر. ينظر: الصحاح: للجوهري: ٤٣٣/١ مادة (نسخ)، لسان العرب: ٢٨/٤.

والنسخ في اصطلاح الأصوليين: رفع الحكم الثابت بخطاب متقدم بخطاب متراخٍ عنه، فهو تبديل بالنظر إلى علمنا، وبيان لمدة الحكم بالنظر إلى علم الله تعالى. ينظر: روضة الناظر: لابن قدامة: ٣٦ - ٣٧، الإحكام: لابن حزم ٤٥/١ و٥٩/٤، التعريفات: للجرجاني: ٢٤٠، الحدود في الأصول: للباجي: ٤٩، تقريب الوصول: لابن جزي: ١١٤، ميزان الأصول: للسمرقندي ٩٧٦/٢، إرشاد الفحول: للشوكاني: ١٨٤. والنسخ عند السلف والمتقدمين من العلماء يطلق على ما هو أعم من اصطلاح الأصوليين. ينظر: الموافقات: للشاطبي ٨٩/٣ وما بعدها، إعلام الموقعين: لابن القيم: ٣٦/١.

والتحريف[1] وأنه صلى الله تعالى عليه وسلّم أشرف الأنبياء قدراً، وأعظمهم فضلاً، وأرفعهم ذكراً، وأن دينه أشرف الأديان، وأن شريعته ناسخة لشرائع من قبله من رسل الرحمن؛ بدلائل قطعية، وبراهين عقلية تخصص الدين الإسلامي بما ذكرناه، ولا تتعداه إلى ما سواه، وفيها الجواب عن السؤال الذي نشرته صحيفة (الحبل المتين) من قبل بعض أفاضل أحبار المسيحيين، وعسى الله أن يوفق بسط الكلام فيه في غير هذا المقام، وإفراده بكتاب مفصل تنبسط له النفوس[2]، وتلتذُّ به الأفهام، وأرجو أن يكون ما كتبته في هذه الرسالة مقبولاً لدى الفاضل المنصف، ويسلمه المناظر عن الحق ويعترف، والله المستعان، وبه أعتصم من الخطأ والنسيان.

○ بيان أن دين محمد ﷺ آخر الأديان وأنه خاتم النبيين عليه السلام:

اعلم أن هذه المسألة إنما تتضح غاية الاتضاح بتمهيد أمور:

الأول[3]: أن الشرائع والنبوات هي: دعوة الخلق إلى الحق، وإرشادهم إلى مصالح المعاش والمعاد، وإعلامهم بالأمور التي تعجز عنها عقولهم، وتقرير الحجج القاطعة، وإزالة الشُّبه الباطلة، وبذلك ينتظم أمر [١/ب] الجمهور، ويتمُّ قانون اجتماعهم للتعاون فيما يضطرون إليه ويحتاجونه. فإنه إذا لم يكن بينهم عدل يتفق الجميع عليه، بقوانين كلية، وهي علم الشرائع التي لا بد لها من واضع يقررها على ما ينبغي مصونة عن الخطأ، وهو؛

---

(١) التحريف: تغيير اللفظ، وهو في القرآن: تغيير الكلمة عن معناها، وهي قريبة الشبه. العين: للفراهيدي: ٣/٢١١.
مادة (حرف)، الصحاح: ٤/١٣٤٢ ـ ١٣٤٣ مادة (حرف).

(٢) لم أقف على كتاب للمؤلف بهذا الصدد من كتبه المطبوعة أو التي ما زالت مخطوطة، ولعل المؤلف لم يتسع له الوقت للتفرغ للتأليف في مثل هذا الموضوع لانشغاله في الكتابة بغيره. والله أعلم.

(٣) لم يذكر المؤلف غير هذا الأمر، والنسخة ليس فيها ما يوهم نقصاً، فلعله نسي.



الشارع، يختل[1] نظام الجمهور، ويحتل[2] الناس في ورطة[3] هلاك وثبور، ثم إن الشارع لا بد أن يمتاز باستحقاق الطاعة، وهو إنما يتقرر بآيات تدل على أن شريعته من عند ربه، وهي المعجزات، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين هم رسل الله تعالى إلى عباده بأوامره ونواهيه زيادة على ما اقتضته العقول من واجباتها، وإلزاماً لما جوزته من مباحاتها، لما أراده الله من كرامة العاقل وتشريف أفعاله، واستقامة أحواله وانتظام مصالحه، حين هيأه للحكمة، طبعه على المعرفة، ليجعله حكيماً، وبالعواقب عليماً، لأن الناس بنظرهم لا يدركون مصالحهم بأنفسهم، ولا يشعرون لعواقب[4] أمورهم بغرائزهم، ولا ينزجرون ـ مع اختلاف هممهم ـ دون أن يرد عليهم آداب المرسلين، وأخبار القرون الماضين، فتكون آداب الله تعالى فيهم مستعملة، وحدوده فيهم متبعة، وأوامره فيهم ممتثلة، ووعيده فيهم زاجراً، وقصص من غبر من الأمم واعظاً، فإن الأخبار العجيبة إذا طرقت الأسماع، والمعاني الغريبة إذا أيقظت الأذهان، استمدتها[5] العقول، فزاد علمها وصح فهمها، وأكثر الناس سماعاً؛ أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر؛ أكثرهم تفكراً، وأكثرهم تفكراً؛ أكثرهم علماً، وأكثرهم علماً؛ أكثرهم عملاً، فلم يوجد من بعثة الرسل معدل، ولا منهم في انتظام...[6] المصالح بدل [٢/أ].

○ سبب بعثة محمد ﷺ:

اعلم أن الله سبحانه وتعالى قد جرت عادته العلية بإرسال الرسل إلى

---

(١) جواب (إذا) في قوله: (فإنه إذا لم يكن بينهم عدل).

(٢) احتل؛ بالحاء المهملة: نزل. الصحاح: ١٦٧٥/٤ مادة (حلل).

(٣) الورطة: الهلاك، وأورطه وورطه توريطاً، أي: أوقعه في الورطة فتورط فيها. الصحاح: ١١٦٦/٣ مادة (ورط).

(٤) هكذا في الأصل باللام في أولها، والصواب (بعواقب) والله أعلم.

(٥) الاستمداد: طلب المدد. الصحاح: ٥٣٥/١ مادة (مدد).

(٦) في الأصل: (في انتظام) وهو تكرار وقع سهواً فحذفته.

العباد ليبين لهم ما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية، إذا مست حاجتهم إليه، فإذا نُسيت الشريعة على توالي الأيام وانقرضت الأحكام، وتبدلت قضايا النبوة، وتحرفت مسائل الشريعة، أرسل الله على فترة من رسله من يقوم بأعباء الرسالة والنبوة، إما بالشريعة الأولى، أو بما ينسخها، إلى أن أدت النهاية إلى سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فإنه أرسله الله تعالى في زمان أحوج ما كان الناس فيه إلى من يهديهم إلى الطريق المستقيم، ويدعو إلى الدين القويم، وينظم الأمور، ويضبط حال الجمهور، لكونه زمان فترة من الرسل[1]، وتفرُّق السبل، وانحراف الملل، واختلاف للدول، واشتعال لنيران الضلال، واشتغال الناس يومئذ بالمحال، فمن العرب من كان يعبد الشجر والحجر ومنهم من كان يعبد الشمس والقمر، ومنهم من وصل الوصيلة[2]، وحمى الحام[3]، [وبحر البحيرة، وسيَّب السوائب][4]، ومنهم من أباح كل حرام، ومنهم من ادعى أن الملائكة بنات الله[5]، واتخذوا آلهة

---

(١) أي: انقطاع من الرسل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ [المائدة: ١٩] الآية. وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨٨/٤.

(٢) الوصيلة: الناقة أو الشاة ـ على خلاف ـ إذا ولدت أنثى بعد أنثى، كان أهل الجاهلية يتركونها لطواغيتهم، وقيل غير ذلك. ينظر: القرطبي: ٢٩١/٤، تفسير ابن كثير ١٠١/٢ ـ ١٠٣.

(٣) الحام: فحل الإبل إذا انقضى ضرابه أعفوه من الحمل فلم يُحمل عليه شيء، وفيه أقوال أُخر. القرطبي: ٢٩١/٤، تفسير ابن كثير: ١٠١/٢ ـ ١٠٢.

(٤) زيادة مني يحسن ذكرها لذكر البحيرة والسائبة في الآية التي ذكرت الوصيلة والحام. والبحيرة: التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يُحمل عليها شيء، بهذا فسرها سعيد بن المسيب فيما رواه البخاري وغيره. ينظر: القرطبي: ٢٩٠/٤ ـ ٢٩٢، تفسير ابن كثير: ١٠١/٢ ـ ١٠٢.

(٥) حكى الله تعالى قولهم هذا في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف: ١٩].



سواه، وأنه لا معاد ولا عقاب[1]، ولا نعيم ولا ثواب[2]، والفرس على كثرة تفاوت العدد والإحصاء، مواظبة على إيقاد النيران، وعبادتها من دون الرحمن، وإباحة وطء الأمهات، وتحليل نكاح الإخوة والأخوات، وإنكار الآيات والمعجزات.

والأتراك قد كفروا بربهم، وأنكروا وجود خالقهم، وعبدوا الأصنام واستباحوا كل حرام، وهم مع ذلك جاهدون في تحريق البلاد، وتعذيب العباد [ب/٣].

والهند جاثمة على عبادة البقر، والسجود للشجر والحجر، واليهود قد أولعت بالجحود وإخماد الحق، وتمسكت بحب الرئاسة، وقول الباطل، واعتقاد الجسمية والصور ونحوهما لمن تنزه عن النقائص وسمات الخلق، تبارك اسمه، وعزّ شأنه، وتدينت بالغش حتى في تبديل الدين والشرائع، وصفات الرسل وسيرها، وما تقرر من عصمتها التي كانت مكتوبة عندهم في الألواح والورق. والنصارى ابتدعت القول بالتثليث، وعبادة الصليب وصور القديسين والقديسات.

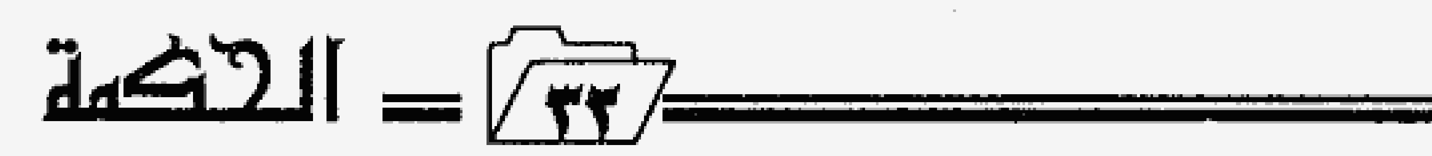
وهكذا سائر الفرق، كلٌّ يخوض في أودية الضلال، وقد غمرته لجج الجهالات وتخليطات الخيال. والكل[3] منحرف عن الحق، مشتغل بالمحال، وبلغت أنواع الشرور حدَّها وتناهى في الأرض الباطل، فإذا بلغ عباد الله تعالى هذا المبلغ في الفساد، وزاغوا عن سبيل الرشاد، بعث الله

---

(١) حكى الله ذلك عنهم في مواضع من كتابه المجيد منها قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الدخان: ٣٤، ٣٥].

(٢) التكذيب بالمعاد والعقاب يستلزم التكذيب بالنعيم والثواب، والتكذيب بالقرآن يستلزم ذلك كله، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦].

(٣) الصواب: (وكلهم). تنظر: كتب النحو (المعارف)، قال الإمام ابن القيم: (منع كثير من النحاة أن يقال: البعض والكل لأنهما اسمان لا يُستعملان إلا مضافين، ووقع في كلام الزجاج وغيره؛ بدل البعض من الكل) بدائع الفوائد: ١١٩/٤.



سبحانه إليهم من يجدد لهم ما عمي[1] عنهم من أمر الدنيا والدين، أرسل حينئذ الرسل رحمة للعالمين.

ومن المعلوم ضرورة؛ أنه لم يظهر أحد أسس الله تعالى به منهدم هذا البنيان، سوى محمد ﷺ، فهو الذي أصلح الله به ما فسد من شأن الناس، وميّز به الحق من الباطل، فأزال الرسوم الزائغة، والمقالات الفاسدة، وأشرقت شموس التوحيد، وأقمار التنزيه، وزالت ظلمة الشرك، والثنوية[2]، والتشبيه[3]، وانتشرت أنواره في البلاد والعباد، وارتجت الأرض بذكره تعالى حق ذكره، وظهرت سفه من أسند [٤/أ] على سبيل الحقيقة أثراً من الآثار إلى غيره تعالى، وارتفعت بتحميده وتمجيده وتوحيده الأصوات في المساجد والصوامع والمنابر، ونبعت ينابيع الحكم الجمة، والمعارف النورانية على القلوب والألسنة.

كلام الإمام فخر الدين الرازي[4] يؤيد ذلك:

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ

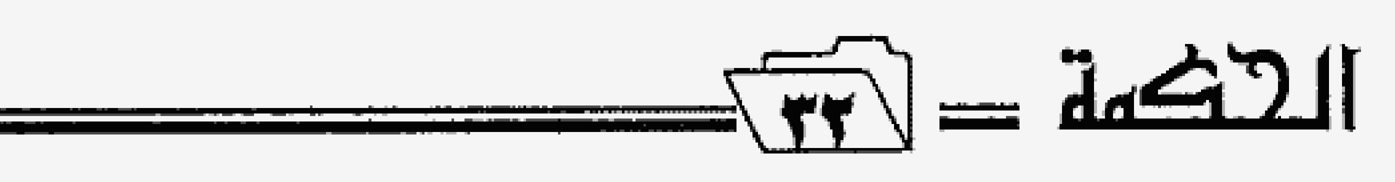
---

(١) عَمِيَ عليه الأمر: التبس، على وزن (صَدِيَ)، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ [القصص: ٦٦]، ورجل عَمِي القلب أي جاهل، وامرأة عَمِيَةٌ عن الصواب، وعَمِيَة القلب، على وزن (فعِلَة) فيهما، وقوم عمون. وقولهم: ما أعماه، إنما يراد به: ما أعمى قلبه. ولا يقال من عمى البصر: ما أعماه. الصحاح: ٢٤٣٩/٦ ـ ٢٤٤٠ مادة (عمي)، وينظر: العين: ٢٦٦/٢ مادة (عمي).

(٢) الثنوية: هم القائلون: أن النور والظلام أزليان قديمان. الملل والنحل: للشهرستاني مطبوع بهامش الفصل: لابن حزم: ٨٠/٢.

(٣) التشبيه: حمل صفات الله تعالى على ما يوافق صفات المخلوقين. الملل والنحل: ١٣٧/١ ـ ١٣٩، القواعد المثلى: للعلامة محمد صالح العثيمين: ٣٠ ـ ٣١.

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري أبو المعالي وأبو عبدالله المعروف بالفخر الرازي، أحد فقهاء الشافعية، ولد في الري سنة ٥٤٣هـ وتوفي سنة ٦٠٦هـ، نبغ في علوم كثيرة، ومع غزارة علمه في فن الكلام كان يقول: من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز. وقد رجع عن مذهب الكلام إلى طريق السلف، كان ينال من الكرامية وينالون منه. وفيات الأعيان: ٣٨١/٣، البداية والنهاية: ٥٩/١٣ ـ ٦٠.



جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩].

ما نصه:

(الفائدة في بعثة محمد صلَّى الله تعالى عليه وسلم عند فترة من الرسل هي أن التغيير والتحريف قد تطرق إلى الشرائع المتقدمة، لتقادم عهدها وطول زمانها، وبسبب ذلك اختلط الحق بالباطل، والصدق بالكذب، وصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات لأن لهم أن يقولوا: يا إلٰهنا عرفنا أنه لا بد من عبادتك، ولكنا ما عرفنا كيف نعبد، فبعث الله تعالى في هذا الوقت محمداً ﷺ إزالة لهذا العذر)(١). انتهى كلامه، ومنه عُلم سبب بعثة النبي ﷺ وفائدتها.

○ ذكر شيء من صفات النبوة وبيان شرائطها:

إن النبوة لا تصح إلا ممن أرسله الله تعالى بوحيه إليه، فصحتها منه معتبرة [ب/٥] بثلاثة شروط تدل على صدقه ووجوب طاعته:

أحدها: أن يكون مدعي النبوة على صفات يجوز أن يكون مؤهلاً لها لصدق لهجته، وظهور فضله وكمال حاله، فإن اعتوره نقص أو ظهر منه كذب، لم يجز أن يؤهل للنبوة من عُدم آلتها، وفقد أماناتها، (بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد [رضي الله عنه] إلى بعض أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام، فقالوا: يا خالد صف لنا محمداً. قال: بإيجاز أم بإطناب؟ قالوا: بإيجاز. قال: هو رسول الله، والرسول على قدر المرسِل)(٢).

والشرط الثاني: إظهار معجز يدل على صدقه، ويعجز البشر عن مثله،

---

(١) تفسير الرازي: ١١/١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢) لم أقف على تخريجه فيما بين يدي من مصادر.

لتكون مضاهية للأفعال الإلهية، ليُعلم أنها منه، فيصح بها دعوى رسالته؛ لأنه لا يظهرها من كاذب عليه، ويكون المعجز دليلاً على صدقه، وصدقه دليلاً على صحة نبوته.

والشرط الثالث: أن يقترن بالمعجز دعوى النبوة، فإن لم يقترن بالمعجزة دعوى لم يصر بظهور المعجزة نبياً؛ لأن المعجز يدل على صدق الدعوى، فكان صفة لها، فلم يجز أن تثبت الصفة قبل وجود الموصوف، فإن تقدم ظهور المعجز على دعوى النبوة كان تأسيساً للنبوة ككلام عيسى عليه السلام في المهد؛ تأسيس لنبوته، فاحتاج مع دعوى النبوة إحداث معجز يقترن بها، ليدل على صدقه فيها، وإن تقدمت دعوى النبوة على المعجز؛ اكتفي بحدوث المعجز بعدها عن اقترانه بها؛ لأن استصحابه للدعوى مقترن بالمعجز، فإن ظهر المعجز المقترن بالدعوى لبعض الناس دون جميعهم، نظر، فإن كانوا أعداداً يتواتر بهم الخبر ويستفيض [٦/أ] فيهم الأثر؛ كان الغائب عنه محجوجاً بالمشاهِد له في لزوم الإجابة والانقياد للطاعة، كما يكون العصر الثاني محجوجاً بالعصر الأول، وإن كان المشاهِد للمعجز عدداً لا يستفيض بهم الخبر ولا يتواتر بهم الأثر لإمكان تواطئهم على الكذب، ويتوجه إلى مثلهم الخطأ والزلل، كان المعجز حجة عليهم، ولم يكن حجة على غيرهم حتى يشاهدوا من المعجز ما يكونون محجوجين به، وسواء كان من جنس الأول أو[١] من غير جنسه، فإن قصر من شاهد الأول عن عدد التواتر، وقصر من شاهد الثاني عن عدد التواتر؛ لم يثبت حكم المتواتر فيهما ولا في واحد منهما، لجواز الكذب عن كل واحد من العددين.

وإذا كان حجج الأنبياء على أممهم هو المعجز الدال على صدقهم.

(١) الصواب هنا أن يأتي بـ(أم) المعادلة (المتصلة) بدل (أو)، وللتحقق من ذلك يراجع ما يتعلق بـ (أم) و(أو) في كتب النحو ومنها: شرح ابن عقيل: ٢/٢٢٩ ـ ٢٣٣.





[تعريف المعجز]:

فالمعجز: ما خرق عادة البشر من خصال[1] لا تستطاع إلا بقدرة إلهية تدل على أن الله تعالى خصَّه بها تصديقاً على اختصاصه برسالته، فيصير دليلاً على صدقه في ادعاء نبوته إذا وصل ذلك منه في زمان التكليف[2]. أما عند قيام الساعة إذا سقطت فيه أحوال التكليف، فقد يظهر فيه من أشرطها ما يخرق العادة[3]، فلا يكون معجزاً لمدعي نبوة.

---

(١) خصال: بكسر الخاء المعجمة: حالات الأمور (خلق الإنسان)، الواحدة؛ خصلة ـ بفتح المعجمة ـ تقول: في فلان خصلة حسنة، وخصلة قبيحة، وخَصَلات كريمات. العين: ١٨٦/٤، المعجم الوجيز: ١٩٩، مادة (خصل)، وعلى هذا يكون قد أدخل في التعريف ما ليس منه، لتعلق المعجز بالقدرة، فيكون مخالفاً لماهية المعرَّف، وهو خلل في التعريف.

(٢) اضطرب العلماء في تعريف المعجز اضطراباً شديداً، وقد ذكروا تعريفات متعددة لعل من أشهرها أن المعجزة: (أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين له مع عدم المعارضة) التعريفات: للجرجاني: ٢١٩، شرح جوهرة التوحيد: ١٨٩، ١٩٠. ولا يشترط في تعريفها التقييد بأن لا تكون في زمن نقض العادة؛ لأن ذلك مما ثبت بمعجزة نبينا محمد ﷺ، فوقوعه تصديق آخر للمعجزة، وأما اشتراط مقارنتها لدعوى النبوة، ففيه نظر، وقد ذكر شيخ الإسلام ما يرد على تعريف المعجزة في كتابه النبوات: ٥ وما بعدها و٢٨٩. والمعجزة اصطلاح حادث، ولا مشاحة فيه، واسمها في الشرع: آيات وبراهين، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: ١٣٢]، وقال سبحانه: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢]، والآية في اللغة وفي الشرع وردت لمعان متعددة، وإنما يعين السياق أحدها، وقد كان الأئمة المتقدمون كالإمام أحمد وغيره يسمون المعجزات: الآيات، وفرق كثير من المتأخرين بين المعجزات فخصوها بالأنبياء وبين الكرامات فخصوها بالأولياء. [ينظر: النبوات: ٧ وما بعدها و٢٨٩ و٣١٠]، قاعدة في المعجزات والكرامات وخوارق الآيات: لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل: ٢/٥، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: له أيضاً: ٤١٥/٢ ـ ٤١٨.
وقول المصنف في آخر التعريف: (إذا وصل ذلك منه في زمان التكليف) ظاهره أن التكاليف الشرعية لها زمان تسقط فيه كما سيأتي في الهامش اللاحق، فانظره.

(٣) عبارة المصنف هذه فيها اضطراب وغموض، أما الاضطراب فإن قوله: (وأما عند قيام الساعة) =

وإنما اعتبر في المعجز خرق العادة؛ لأن المعتاد يشمل الصادق والكاذب فاختص غير المعتاد بالصادق دون الكاذب. وإذا تقرر أن المعجز محدود بما ذكرناه من خرق العادة(1) فقد ينقسم ما خرج عن العادة إلى عشرة أقسام:

= مع قوله: (يظهر فيها من أشرطها) لا يستقيم لأن أشراط الساعة تقع قبل قيامها بسنين كما هو معروف عند من له اطلاع على أحاديث علامات الساعة، وأما الغموض فإن قوله: (وأما عند قيام الساعة إذا سقط فيه أحوال التكليف) لا خلاف فيه، ولكن يظهر ـ من الاضطراب الذي ذكرته ـ أن المصنف لا يقصد قيام الساعة الذي يبدأ مع النفخة الأولى في الصور وإنما يقصد أشراط الساعة الكبرى، يؤيد ذلك عبارته في آخر تعريفه للمعجز وهي قوله: (إذا وصل ذلك منه في زمان التكليف) وهذه العبارة يفهم منها؛ أن التكاليف الشرعية لها زمن تنتهي فيه ـ ولعل المصنف يريد بذلك زمن نقض العادة ـ وهذا مخالف لنصوص الكتاب والسنة التي تدل على استمرار التكليف، ومنها حديث النواس بن سمعان وفيه أن النبي ﷺ سُئل عن مدة لبث الدجال في الأرض فقال: **«أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»**. قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: **«لا، اقدروا له قدره»** الحديث. [صحيح مسلم: ١٢٢٨ رقم ١٠١ ـ (٢١٣٧)]، فأمر النبي ﷺ أن يُقدر لذلك اليوم قدره من الصلوات دليل على استمرار التكاليف الشرعية، لكن ينبغي أن يُعلم؛ أن الناس في آخر الزمان يتركون التكاليف لا أنها تسقط، ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: **«لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»** [رواه مسلم: ١٢٣٦ رقم ١٣١ ـ ٢٩٤٩] وقوله ﷺ في حديث النواس الذي سبق ذكر جزء منه: **«فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة»** فهذه النصوص وما في معناها تدل على ترك الناس التكاليف قبل قيام الساعة. وحكى القرطبي عن ابن بطال أنه ذكر في شرحه لصحيح البخاري: أن الدين لا ينقطع كله في جميع أقطار الأرض، لقوله ﷺ: **«إن الإسلام يبقى إلى قيام الساعة إلا أنه يضعف ويعود غريباً كما بدأ»** وحمل تلك الأحاديث على الخصوص، وتعقبه القرطبي بأحاديث منها حديث النواس ﷺ. ينظر: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: ٦٥٩ ـ ٦٦٠.

(1) المعجز غير محدود بهذا فقط، بل به مع قيود أخرى، وخرق العادة أمر جامع بين المعجزة والكرامة والسحر والكهانة. ينظر: النبوات: ٣٠٩ وما بعدها، قاعدة شريفة في المعجزات ضمن مجموعة الرسائل والمسائل: ٥/٢.





أحدها: ما يخرج جنسه عن قدرة البشر[1]، كاختراع الأجسام، وقلب الأعيان، وإحياء الموتى، فقليل هذا وكثيره معجز؛ لخروج [ب/٧] قليله عن القدرة كخروج كثيره.

والقسم الثاني: ما يدخل جنسه في قدرة البشر، لكن يخرج مقداره عن قدرة البشر[2]، كطيّ الأرض البعيدة في المدة القريبة، فيكون معجزاً لخرق العادة.

القسم الثالث: ظهور العلم بما خرج من معلوم البشر، كالإخبار بحوادث الغيوب، فيكون معجزاً بشرطين:

أحدهما: أن يتكرر حتى يخرج عن حد الاتفاق.

والثاني: أن يتجرد عن سبب يستدل به عليه.

القسم الرابع: ما خرج نوعه عن مقدور البشر، وإن دخل جنسه في مقدور البشر، كالقرآن في خروج أسلوبه عن أقسام الكلام، فيكون معجزاً لخروج نوعه عن القدرة، فصار جنساً خارجاً عن القدرة، ويكون المعجز مع القدرة على آلته من الكلام أبلغ في المعجز.

والقسم الخامس: ما يدخل في أفعال البشر، ويفضي إلى خروجه عن مقدار البشر، كالبرء الحادث عن المرض، والزرع الحادث عن البذر، فإن برىء المرض المزمن لوقته واستحصد الزرع المتآكل قبل أوانه كان بخرق العادة معجزاً لخروجه عن القدرة[3].

---

(١) ينظر: الشفا: ٢٢٣/١، النبوات: ١٢.

(٢) ينظر: المصدر السابق: الصفحة السابقة.

(٣) كردّ النبي ﷺ عين قتادة بن النعمان الأنصاري ﷺ بعد أن فُقئت يوم أُحد فسالت على خده، فلما ردها النبي ﷺ بيده الشريفة كانت أحسن عينيه. ينظر: دلائل النبوة: لأبي نعيم: ٤١٨، سيرة ابن هشام: ٣٠/٣، الشفا: ٢٨١/١ سير أعلام النبلاء: ٣٣١/٢ - ٣٣٢، البداية والنهاية: ٣٨/٤، الرياض المستطابة: ٢٤٥، والقصة عزاها ابن حجر الى البغوي وأبي يعلى كما في الإصابة: ٢٢٥/٣.

والقسم السادس: عدم القدرة عما كان داخلاً في القدرة، كإنذار الناطق بعجزه عن الكلام وإخبار الكاتب بعجزه عن الكتابة، فيكون ذلك معجزاً، يخص بالعاجز[1]، ولا يتعداه[2]، لأنه يقين من عجز نفسه، وليس غيره على يقين من عجزه[3].

والقسم السابع: إنطاق حيوان أو حركة جماد، فإن كان باستدعائه أو عن إشارته كان معجزاً له[4]، وإن ظهر بغير استدعاء ولا ....

---

(١) الصواب أن يقول: يخص به العاجز، أو: يختص به العاجز، جاء في مختار الصحاح مادة (خصص): (خصه بالشيء خصوصاً وخصوصية، بضم الخاء وفتحها والفتح أفصح، واختصه بكذا: خصه به).

(٢) مثال ذلك ما رواه جابر بن عبدالله ﷺ: (أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئنا، فإذا عنده أعرابي، فقال رسول الله ﷺ: **«إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو بيده صلتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله [فشام السيف] فها هو ذا جالس»**، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ) البخاري: ٣/٣٦، مسلم: ١٠٠١ رقم ١٣ ـ (٨٤٣) والزيادة له.

(٣) لعل مراد المصنف؛ ليس غيره ممن لم يؤمن. وإلا فإن هذه الجملة على إطلاقها فيها نظر، لأن النبوة إن ثبتت لمدعيها وجب تصديقه في شأنه كله، يستوي في ذلك العاجز عن فعل ما كان داخلاً في القدرة والمشاهد والسامع، غاية ما في الأمر؛ أن العاجز عن فعل الممكن أشد تصديقاً من غيره، وذلك لا يستلزم نفي اليقين عن غيره، بل لا يلزم نفي الشك عنه. والله أعلم.

(٤) من إنطاق الحيوان باستدعاء النبي ﷺ؛ حديث عمر ﷺ: (أن رسول الله ﷺ كان في مَحْفِل من أصحابه إذ جاء أعرابي قد صاد ضباً، فقال: ما هذا؟ قالوا: نبي الله. فقال: واللات والعزى، لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب، وطرحه بين يدي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: **«يا ضب»**. فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة. قال: **«من تعبد؟»** قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه. قال: **«فمن أنا؟»** قال: رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك، وخاب من كذبك. فأسلم الأعرابي). رواه البيهقي: في دلائل النبوة: ٣٦/٦، ٣٧، ٣٨، وذكره القاضي عياض في الشفا: ٢٧٢/١ وهذا لفظه. =

إشارة[1] [٨/أ] لم يكن معجزاً له، وإن خرق العادة، لأنه ليس اختصاصه به

= ومن حركة الجماد باستدعائه وإشارته ﷺ ما رواه جابر ﷺ، وفيه: (سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها. فقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**». فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها. فقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**». فانقادت معه كذلك. حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأَمَ بينهما، يعني جمعهما، فقال: «**التئما عليّ بإذن الله**» فالتأمتا. قال جابر: فخرجت أُحضرُ مخافةَ أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد، فجلست أحدث نفسي، فحانت مني لفتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلاً، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل منهما على ساق، فرأيت رسول الله ﷺ وقف وقفة فقال برأسه هكذا وأشار أبو إسماعيل برأسه يميناً وشمالاً ثم أقبل) الحديث. مسلم: كتاب الزهد، باب حديث جابر ١٢٥٣ ـ ١٢٥٤ رقم ٣٠١٢، دلائل النبوة للبيهقي: ٨/٦، الشفا: ٢٦٣/١ ـ ٢٦٤. و(أفيح) بالفاء، أي واسعاً، و(المخشوش) بالحاء والشين المعجمتين: هو الذي يُجعل في أنفه خشاش ـ بكسر الخاء ـ وهو عود يُجعل في أنف البعير إذا كان صعباً، ويُشد فيه حبل ليذل وينقاد، وقد يتمانع لصعوبته، فإذا اشتد عليه وآلمه انقاد شيئاً.

و(أحضر) بضم الهمزة وإسكان الحاء المهملة وكسر الضاد المعجمة: أي أعدو وأسعى سعياً شديداً. شرح صحيح مسلم للنووي بهامش إرشاد الساري: ٤٧١/١٠ ـ ٤٧٢. وأبو إسماعيل: هو حاتم بن إسماعيل أحد رجال سند هذا الحديث.

(١) من إنطاق الحيوان بغير استدعاء ولا إشارة ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال: (عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه، قال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقاً ساقه الله إلي. فقال: يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس؟ فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق. فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها. ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره. فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: «**أخبرهم**». فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده**». أحمد: ٨٣/١ ـ ٨٤، دلائل النبوة: للبيهقي ٤١/٦، دلائل النبوة: لأبي نعيم: ٣/٨، وينظر الشفا: ٢٧٢/١ ـ ٢٧٣، سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١٩٠/١ رقم ١٢٢. =

بأولى من اختصاصه بغيره، وكان من ندر[1] الوقت وحوادثه[2].

والقسم الثامن: إظهار الشيء في غير زمانه، كإظهار فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف[3]. فإن كان استبقاؤهما في غير زمانهما

= ومن حركة الجماد بغير استدعاء، ولا إشارة؛ حنين الجذع، فعن جابر بن عبدالله ﷺ: (أن النبي ﷺ كان يقوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله ألا نجعل لك منبراً؟ قال: «**إن شئتم**». فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمها إليه تئن أنين الصبي الذي يُسَكَّن. قال: «**كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها**») البخاري: ٢٧٧/٢ باب علامات النبوة، وهذا الحديث رواه من الصحابة بضعة عشر. قاله القاضي عياض. ينظر: الشفا: ٢٦٧/١.

ومن ذلك ما رواه جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن**» مسلم: ٩٩٩ رقم ٢ ـ (٢٢٧٧).

(١) ندر: بضم النون وفتح الدال المهملة، من ندر الشيء، من باب نصر: سقط وشذ، ومنه: النوادر، وقولهم: لقيته في النَّدْرة والنَّدَرة، بسكون الدال وفتحها، أي: فيما بين الأيام. مختار الصحاح: مادة (ندر).

(٢) إنطاق الحيوان أو حركة الجماد من غير استدعاء نبي أو إشارته كما في قصة الذئب، وتسليم الحجر، وحنين الجذع، ونحو ذلك ليس من ندر الوقت كما ذهب إليه المصنف رحمه الله تعالى، بل هو من آيات الله التي يؤيد بها رسله صلوات الله وسلامه عليهم. والله أعلم.

(٣) ظهور ذلك على يد نبي معجزة كقصة شاة أم معبد الخزاعية، فإن النبي ﷺ وأبا بكر الصديق ﷺ نزلا خيمتها في طريق الهجرة إلى المدينة وسألاها: هل عندها شيء؟ وكان في كسر الخيمة شاة عازب ليس في ضرعها لبن، فاستأذن النبي ﷺ من أم معبد أن يحلب الشاة فأذنت له، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ودعا فتفاجت (فرجت ما بين رجليها) ودرَّت، فحلبها ﷺ. والقصة رواها الحاكم: ٩/٣، ١٠، وأبو نعيم في الدلائل: ٢٨٢ ـ ٢٨٤، والبيهقي في الدلائل والبزار وغيرهم بأسانيد ضعيفة وواهية إلا طريقاً واحدة رواها البزار بسندٍ حسن عن الصحابي قيس بن النعمان السكوني ﷺ، وقد ذكر الدكتور أكرم ضياء العمري أسانيد القصة في كتابه القيم (السيرة النبوية الصحيحة) ٢١٢/١ ـ ٢١٥، وينظر: البداية والنهاية: ٢١٢/٣ ـ ٢١٩، زاد المعاد: ٥٥/٣ ـ ٥٧.

وأما ظهوره على يد غير النبي؛ فكرامة كما في قصة خبيب ﷺ أنه لما اشتراه بنو الحارث ابن عامر بن نوفل بمكة بعدما حصل له وللنفر الذين بعثهم رسول الله ﷺ =

ممكناً؛ لم يكن معجزاً[1]، وإن لم يمكن استبقاؤهما؛ كان معجزاً، سواءً بدأ بإظهاره أو طولب به.

والقسم التاسع: انفجار الماء، وقطع الماء المنفجر، إذا لم يظهر بحدوثه أسباب من غيره فهو من معجزاته، لخرق العادة به[2].

والقسم العاشر: إشباع العدد الكثير من الطعام اليسير[3]، وإروائهم

= عيناً على قريش ما حصل: (وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله. وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله) الحديث. أخرجه البخاري: ٢٨/٣، أبو داود: ٥١/٣ رقم ٢٦٦٠.

(١) مثال ذلك: حفظ بعض الفواكه ـ في عصرنا ـ في أجهزة تبريد خاصة، واستخراجها في غير وقتها.

(٢) انفجار الماء معجزة حصلت لنبي الله موسى عليه الصلاة والسلام من الحجر بعد ضربه بعصاه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، وحصلت لنبينا محمد ﷺ إذ نبع الماء من بين أصابعه، والأحاديث في ذلك كثيرة منها حديث قتادة عن أنس ﷺ قال: (أُتي النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم. قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة) أخرجه البخاري: ٢٧٤/٢، مسلم: ٩٩٩ رقم ٦، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ ثابت من حديث جماعة من الصحابة غير أنس، منهم: جابر، وابن مسعود ﷺ. ينظر: الشفا: ٢٥٢/١. قال القرطبي: (ما أوتي نبينا محمد ﷺ من نبع الماء وانفجاره من يده وبين أصابعه أعظم في المعجزة، فإنا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار، آناء الليل وآناء النهار، ومعجزة نبينا لم تكن لنبي قبل نبينا ﷺ، يخرج الماء من بين لحم ودم) الجامع لأحكام القرآن: ٤٤٥/١.

(٣) من ذلك حديث أنس ﷺ قال: (قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء؟ فأخرجت أقراصاً من شعير ثم أخرجت خماراً لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسّته تحت ثوبي وردّتني ببعضه =

من الماء القليل[1] يكون معجزاً في حقهم، وغير معجز في حق غيرهم،

= ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس فقمت عليهم فقال لي رسول الله ﷺ: «**أرسلك أبو طلحة؟**» فقلت: نعم. قال: «**بطعام؟**» قال: فقلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «**قوموا**»، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا من الطعام ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم. قال: فانطلق أبو طلحة ورسول الله ﷺ حتى دخلا، فقال رسول الله ﷺ: «**هلمي يا أم سليم ما عندك**»، فأتت بذلك الخبز فأمر به ففت، وعصرت أم سليم عُكَّة لها فأدَمَتْهُ، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «**ائذن لعشرة**»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم أذن لعشرة، فأكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً) البخاري: ٢٩١/٣ ـ ٢٩٢ مسلم: ٩٠٩ رقم ١٤٢ ـ (٢٠٤٠) ولفظ مسلم: (والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون) وينظر: الشفا: ٢٥٨/١ وما بعده.

(١) من ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث طويل عن عوف قال: حدثنا أبو رجاء، عن عمران رضي الله عنه قال: (كنا في سفر مع النبي ﷺ، وإنا أسرينا حتى كنا في آخر الليل وقعنا وقعة ولا وقعة أحلى عند المسافر منها فما أيقظنا إلا حر الشمس، وفيه: ثم سار النبي ﷺ فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلاناً ـ كان يسميه أبو رجاء نسيه عوف ـ، ودعا علياً، فقال: «**اذهبا فابتغيا الماء**»، فانطلقا فتلقيا امرأة بين مَزَادتين أو سطيحتين من ماء على بعير لها، فقالا: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة ونفرُنا خلوفاً. قالا لها: انطلقي إذاً. قالت: أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ. قالت: الذي يقال له الصابىء؟ قالا: هو الذي تعنين فانطلقي، فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه الحديث. قال: فاستنزلوها عن بعيرها ودعا النبي ﷺ بإناء ففرّغ فيه من أفواه المَزادتين أو سطيحتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالى ونودي في الناس اسقوا واستقوا، فسقى من شاء، واستقى من شاء، وكان آخر ذلك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناءً من ماء، قال: «**اذهب فأفرغه عليك**»، وهي قائمة تنظر إلى ما يُفعل بمائها، وأيم الله لقد أُقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد مِلأة منها حين ابتدأ فيها، فقال ﷺ: «**اجمعوا لها**» فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً فجعلوها في ثوب، وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها، قال لها: «**تعلمين ما رزئنا من مائك شيئاً ولكن الله هو الذي أسقانا**»، فأتت أهلها وقد احتبست عنهم، قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت: العجب؛ لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابىء ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه ـ وقالت بإصبعيها الوسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء تعني السماء والأرض ـ=



لما قدمناه من التعليل[1].

فهذه الأقسام ونظائرها الداخلة في حدود الإعجاز، متساوية الأحكام في ثبوت الإعجاز وتصديق مظهرها على ما ادعاه من النبوة، وإن تفاوت الإعجاز فيها وتباين، كما أن دلائل التوحيد قد تختلف في الخفاء والظهور، وإن كان في كلٍ منها دليل.

فأما فعل ما يقدر البشر على ما يقاربه، وإن عجزوا عن مثله فليس بمعجز، لأن الجنس مقدور عليه، وإنما الزيادة فضلُ حذق به، كالصنائع التي يختلف فيها أهلها فلا يكون لأحذقهم بها معجز يجوز أن يدعي به النبوة.

وقد ظهر في نبوة محمد ﷺ أكثر تلك الأقسام[2] مع ما تقدمها من إنذار وظهر بها من آثار، وتحقق بها من أخبار [ب/٩]، فصارت أعم النبوات إعجازاً، وأوضحها طريقة وامتيازاً، وأكثرها تأييداً إلهياً، وتعبداً شرعياً، تقهر شواهدها من باين وعاند، وتحج[3] دلائلها من ناكر وجاحد، لأن المهيأ لأمر مطبوع على آلته، ومنقاد إلى غايته حتى يتدرج إليه من غير تكلف، ولم تزل أمارات النبوة لائحة في رسول الله ﷺ حين تدرج إليها[4]، وهو

= أو إنه لرسول الله حقاً، فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصِّرْم الذي هي منه، فقالت يوماً لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عَمْداً فهل لكم في الإسلام؟ فأطاعوها فدخلوا في الإسلام) البخاري: ٧٢/١ كتاب التيمم، باب الصعيد الطيب وضوء المسلم يكفيه من الماء، مسلم: ٣٠٤ ـ ٣٠٥ رقم (٦٨٢).

(١) ينظر التعليل وما أوردناه عليه ص: ٤١٥ هامش ٣.

(٢) بل ظهرت تلك الأقسام كلها، وقد أوردنا بعض الأمثلة على قسم من الأقسام التي ذكرها المصنف، وينظر: السيرة النبوية الصحيحة: ٦١١/٢ ـ ٦٢٣.

(٣) أي تغلب، من الحُجة وهي البرهان، تقول: حاجّه فحجه أي غلبه. الصحاح مادة (حجج).

(٤) من ذلك: تسليم حجر بمكة عليه قبل النبوة كما في حديث جابر بن سمرة ﷺ=

غافل[1] عنها، وغير متصنع لها، فنهض بأعبائها حين أتته وقام بحقوقها حين لزمته، غير ذاهل فيها[2] ولا عاجز عنها، إلى أن تكامل الشرع فتم على أصلٍ مستقر وقياس مستمر، لا يدفعه عقل، ولا يأباه قلب، ولا تنفر منه نفس، هذا وهو أميٌ لم يقرأ كتاباً، ولا اكتسب علماً، فأوضح كل مُلتَبِس، وبيَّن كل مُشتَبِه، حتى رجع كثير من الملل إلى شريعته في علم ما قصروا عنه من حقوق وعقود استوعب أقسامها، وبيّن أحكامها، وما ذلك إلا بعونٍ إلٰهي، وإمدادٍ لاهوتي[3]، وحسبك بهذا شاهداً لو اقتصرنا عليه، وحجاجاً لو اكتفينا به، ولكن قد أُلِّفت كتب في معجزاته[4] وواضح آياته، مما يرد كل جاحد، ويصدُّ كل معاند، من أنواع متغايرة، وأخبار متواترة، وآثار متظاهرة، يصدق بعضها بعضاً، ليكون تغايرها جامعاً لكل برهان، وتضافرها دافعاً لكل بهتان.

= في صحيح مسلم: ٩٩٩ رقم (٢٢٧٧)، وقد ذكرته في هامش سابق، ومنه؛ الرؤيا الصالحة قبل البعثة كما في حديث عائشة ﵂ قالت: (أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح). البخاري: ٦/١.

(١) رحم الله المصنف لو أنه استبدل هذه الكلمة بغيرها لكان أولى، فلا ينبغي لمسلم أن يعبر بمثل هذا اللفظ عن النبي ﷺ، وقد يُعترض على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝﴾ [يوسف: ٣]، والجواب ظاهر؛ لأن مقام الألوهية يقتضي ذلك ومقام العبودية يسمو بالتسليم لله تعالى والمبالغة بالتذلل والخضوع بين يديه، والله أعلم.

(٢) الصواب أن يقال: ذاهل عنها، وذهل عن الشيء: نسيه وغفل عنه. الصحاح مادة (ذهل).

(٣) لاهوت: إن صح من كلام العرب فيكون من (لاه) ووزنه فعلوت مثل: رهبوت ورحموت، ومعنى (لاه) تستر، وجوز سيبويه أن يكون (لاه) أصل اسم (الله) تعالى، وذهب آخرون: إلى أن الألف واللام في اسم (الله) من بنية الاسم ولم يدخلا للتعريف ـ وهو مروي عن سيبويه أيضاً والخليل ـ قال الخطابي: والدليل على ذلك دخول حرف النداء عليه. الصحاح: مادة (ليه) الجامع لأحكام القرآن: ١٢١/١، ١٢٢.

(٤) مما ينبغي التنبيه إليه أن أحاديث المعجزات ينبغي أن يُرجع فيها إلى مظانها ولا يُكتفى بالكتب المؤلفة في ذلك ـ على ما فيها من فوائد جمة ـ. ومظان تلك الأحاديث: كتب الحديث المسندة كالكتب الستة والمسانيد ودلائل النبوة وغيرها، ليميز بين الصحيح وغيره.

فمنها: ما تقدمه من نذير وبشير.

ومنها: ما تعقبه من تغيير وتأثير.

ومنها: ما قارنه من أقوال وأفعال صدرت منه وإليه، فلم يبق من الآيات ما أخل به.

وقد ذكرت في أبواب مفصلة، وفصول متميزة، لتكون أصح بياناً، وأوضح برهاناً وأعلاها شأناً [١٠/أ]، وأحقها في السابقة والتقديم؛ إعجاز القرآن العظيم، لأنه أصل شرعه، ومستودع رسالته.

[أسباب تخصيص نبينا محمد ﷺ بإعجاز القرآن من بين سائر الأنبياء]:

اعلم أن نبينا ﷺ خُصَّ بإعجاز القرآن الكريم من بين سائر الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، وإن كان كلاماً ملفوظاً، وقولاً محفوظاً، وذلك لثلاثة أسباب صار بها من أخص إعجازه، وأظهر آياته:

الأول: أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره، والشائع المنتشر في ناس دهره، لأن موسى عليه السلام حين بُعِثَ في عصر السحرة خص في فلق البحر يبساً(١)، وقلب العصا حية(٢)، ما ظهر به على كل ساحر، وأذلّ كل كافر. وبُعِثَ عيسى عليه السلام في عصر الطب، وخص من إبراء الزمنى(٣)، وإحياء الموتى(٤)، بما أدهش كل طبيب وأذهل كل لبيب.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].

(٢) قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ١٩، ٢٠].

(٣) الزمنى: جمع زمن بفتح الزاي المعجمة وكسر الميم، أي مبتلى بيِّن الزَّمَانة. الصحاح: ٢١٣١/٥ مادة (زمن).

(٤) قال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

فلما بُعِثَ نبينا ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خُصّ بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء، وأذعن له البلغاء، وتبلد فيه الشعراء، ليكون العجز عنه أقهر، والتقصير فيه أظهر، فصارت معجزاته وإن اختلفت؛ متشاكلة المعاني، مختلفة العلل.

والثاني: أن المعجزة في كل قوم بحسب أفهامهم، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم، وكان في بني إسرائيل من قوم موسى وعيسى عليهما السلام [ب/١١] بلادة وغباوة، لأنه لم يُنقل عنهم ما تدون من كلام مستحسن، أو يستفاد من معنى مبتكر، وقالوا[١] لنبيهم حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فخصوا من الإعجاز بما يصلون إليه ببداية حواسّهم، والعرب أصح الناس أفهاماً، وأحدّهم أذهاناً، قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها، ومن المعاني أغربها، ومن الآداب أحسنها، فخصوا من معجز القرآن بما تجول به أفهامهم، وتصل إليه أذهانهم، فيدركونه بالفطنة دون البديهة، وبالروية دون البادرة، تكون معجزة كل أمة بما يشاكل طبعها ويوافق فهمها.

الثالث: أن معجزة القرآن أبقى على الأعصار، وأنشر في الأقطار من معجز يختص بحاضره، ويندرس بانقراض عصره، وما دام إعجازه؛ فهو أحج وبالاختصاص أحق.

إذا تمهد لك هذه المقدمات، وعرفت مقاصد تلك الأمور، تبين لك منها أن محمداً صلّى الله تعالى عليه وسلّم خاتم النبيين والمرسلين، كما تبيّن لك أنه رسول الله إلى الخلق أجمعين، وذلك لأن أعظم معجزاته ﷺ القرآن العظيم، وهو معجزة جمعت بين الدليل؛ لما فيه من الإعجاز وغيره من وجوه الدلالة، وبين المدلول، لما فيه من بيان الإيمان وأدلته، وبيان الأحكام الشرعية، والقصص والأمثال، والوعد والوعيد، وغير ذلك من علومه التي لا تحصر، ثم جعل مع ذلك حفظه وتلاوته من أفضل الأعمال

(١) ينظر: الأجوبة الفاخرة: ٢١.



التي يُتَقَرب بها إلى الله تعالى في الآخرة شفيعاً مشفعاً لأصحابه[1] [١٢/أ] حتى يبلغهم أرفع درجات الرضوان، ويدخلهم بحبوحة الجنان، ويجمعهم مع المنعم عليهم في أعلى مكان.

ولهذا توفرت الدواعي على حفظه إلى ممر[2] الدهور والأعصار، ففي كل قرن نرى من حفظته ما يفوق العدّ والإحصاء، ويستنفذ[3] نجوم السماء، ومثل ذلك لم يتفق لغيره من الكتب الإلهية المقدسة، كيف لا وهو كما قال القائل من الأكابر الأماثل[4]:

به فنون المعاني جمعن فما	يفتر من عجب إلا الى عجب
أمر ونهيٌ وأمثالٌ وموعظةٌ	وحكمة أودعت في أفصح الكتب
لطائف يجتليها[5] كل ذي بصر	وروضة يجتنيها كل ذي أدب

ولما كان القرآن العظيم[6] شريعة نبينا محمد ﷺ، ومأخذ الأحكام الإلهية،

---

(١) عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرؤوا الزهراوان: البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير تحاجان عن صاحبهما، اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة» مسلم: ٣٥٠ رقم ٢٥٢ ـ (٨٠٤).

(٢) هكذا في الأصل بميمين، والصواب (مر) بميم واحدة، لأن الممر: هو موضع المرور وليس مقصوداً هنا. مختار الصحاح مادة (مرر).

(٣) هكذا في الأصل بالذال المعجمة، والصواب: بالدال المهملة.

(٤) لم أقف على اسم القائل.

(٥) أي: يقتطعها، من الجتل، وهو القطع، قال الكميت:

وآخر مجتالٌ بغير قرابةٍ	هُنيدة لم يمنن عليك اجتيالّها

العين: ٩١/٦ مادة (جتل).

(٦) كتب المصنف رحمه الله بخطه في الهامش ما نصه: (قوله: ولما كان القرآن إلخ. اعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة؛ القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد ﷺ، فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى، وهو الخارق المعجز، =

كما كان أعظم معجزة وأظهر دليل وبرهان على نبوته ورسالته، لم يمكن أن يعتري هذه الشريعة نقص ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير، كما اعترى شرائع من قبله من الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، فإن كلام البشر لا يلتئم مع الكلام المعجز الخارج عن طوقهم[1]، والعيان أعدل شاهد على ذلك، ألا ترى أن أحداً لا يمكنه أن يزيد حرفاً أو ينقصه فضلاً عن كلمة في آية من آيات الله، فإذا فعل ذلك ثم تلا بين ملأ من المسلمين ردوا عليه قراءته، وأنكروا أشد الإنكار، ولم يقبلوا منه سوى ما تواتر من القراءات المأثورة، والروايات المشهورة.

أما كتب سائر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فلم تكن بهذه المنزلة، ولا بهذه المثابة، فإنها إما أحكام وقصص، وإما سير وأمثال [ب/١٣]، وإما أدعية وأذكار ونحو ذلك.

والمعجز شيء آخر[2]؛ كالعصا، وفلق البحر، لموسى عليه السلام، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه[3] والأبرص[4]، لعيسى عليه السلام.

= فشاهده في نفسه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة؛ لاتحاد الدليل والمدلول فيه، وهذا معنى قوله ﷺ: **«ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى [الله] إلي فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»** [البخاري: ٢٢٤/٣، مسلم: ١١٥ رقم ٢٣٩ ـ (١٢٥) مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه] يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة؛ وهو كونها نفس الوحي؛ كان الصدق لها أكثر، لوضوحها، فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة. [مقدمة ابن خلدون: ص ٨٣ وفي ص٧٩ بيان تأثير الأغذية في الطبائع. اهـ] وهذا الكلام قد نقله المصنف من مقدمة ابن خلدون كما ذكر، وأرقام الصفحات التي ذكرها للطبعة التي كانت بين يديه، وكلام ابن خلدون في (المقدمة السادسة: في أصناف المدركين من البشر بالفطرة أو الرياضة) ص ٩٥ طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١) من معنى (الطوق): الطاقة. ينظر: الصحاح: ١٥١٩/٤ مادة (طوق).

(٢) أي: عند غيره ﷺ من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

(٣) الأكمه: الذي يولد أعمى. الصحاح: ٢٢٤٧/٦ مادة (كمه).

(٤) البرص: داء معروف. الصحاح: ١٠٢٩/٣ مادة (برص).

ولما لم تكن تلك الكتب معجزة أمكن للبشر التصرف فيها وخلط كلامهم بكلامها، ونقصها والزيادة عليها، كما وقع ذلك في التوراة والإنجيل والزبور وغيرها. وقد بيَّن ذلك المتقدمون من العلماء والمتأخرون، بكتب مبسوطة وبراهين قطعية، وأحسن من كتب في ذلك الشيخ رحمة الله الهندي في الباب الثاني من كتابه (إظهار الحق). وأثبت في عدة مقاصد؛ التحريف اللفظي والتحريف بالزيادة، والتحريف بالنقصان، ودفع المغالطات التي أوردها الخصوم في التحريف، وذكر الأمور التي يزول بها استبعاد وقوع التحريف، وكذب القول بوجود نسخ قديمة من التوراة، ونحن في غنى عن إيراده؛ لشهرة كتابه وكتب من تقدمه من الراسخين في العلم جزاهم الله تعالى عنا خيراً.

فلو أن كتب سائر الأنبياء عليهم السلام كانت معجزة لأصحابها كالقرآن العظيم؛ لما اختلَّت ولا اندرست ولا اعتراها ما اعتراها مما هو معلوم لأهل العلم والفضل، ولكن أبى الله تعالى أن تكون هذه الفضيلة لغير سيدنا ومولانا[1] محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فخصَّه بمعجزة القرآن والشريعة المصونة من كل نقص وتغيير إلى آخر الزمان.

[إعجاز القرآن العظيم]:

أما كون القرآن العظيم معجزاً، بل كونه أعظم المعجزات، وأبهر الآيات، وأبين الحجج الواضحات؛ فمقصد مفروغ عنه، ومطلب استراح لسان التحرير والتقرير منه، ألّفت كتب شهيرة في بيانه، وقلّما تجد كتاباً من كتب دلائل النبوة، والكلام، والتفسير، إلا وهو مشتمل على أوضح برهانه [١٤/أ]، ولا زال يتلى بين الأمم، وينادى بأفصح لسان بين مصاقع[2] بلغاء

---

(١) المولى: المعتِق - بكسر التاء - والمعتَق - بفتح التاء -، وابن العم، والناصر، والجار، والحليف. الصحاح: ٢٥٢٨/٦ - ٢٥٣١ مادة (ولي).

(٢) الصقع: بضم الصاد: الناحية، والصقيع: الذي يسقط من السماء بالليل شبيه بالثلج، وصقعت الأرض فهي مصقوعة. الصحاح: ١٢٤٣/٣ مادة (صقع).

العرب والعجم، قوله سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]، فلم ينطق أحد منهم إلى يومنا هذا ببنت شفة، ولا أعرب عن موصوف ولا صفة، وأظهر الكل[١] العجز عن المعارضة في كل وقت وحين، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

فكأن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم موجود في كل عصر بين أظهرنا، والوحي غير منقطع منا؛ لأن دليل نبوته، وقاطع برهانه وحجته، يذكِّر الناس بصحة نبوته في سائر الأقطار، آناء الليل وأطراف النهار، وينادي بأفصح لسان، وأوضح بيان، على صحة رسالته وصدق دعوته، ويدعو الناس في مشارق الأرض ومغاربها إلى العمل بأحكامه العلية والاستنارة بضياء شموس هديه التي أشرقت بالأنوار الإلهية، والشريعة المحمدية، في كل عصر من الأعصار غضة طرية تؤتي أكلها بإذن ربها، لم يعترها ما اعترى سائر الشرائع ولا يعتريها؛ لما اختصت به من الخصائص والأسرار التي أودعت فيها، فكما أن زمن حياة محمد صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم وأيام بعثته لم تمس الحاجة إلى إرسال رسول آخر وتشريع شريعة أخرى، فالقرآن العظيم كلما يتلى تلاوة على وجهها كأن السامع يسمعه من فم رسول الله صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم.

○ [فائدة البعثة واستمرار وجودها وثباتها]:

ففائدة البعثة لم تزل موجودة ثابتة، وهي: دعوة الخلق [ب/١٥] إلى الحق وإرشادهم إلى مصالح المعاش والمعاد، وإعلامهم بالأمور التي تعجز عنها عقولهم وتقرير الحجج القاطعة، وإزاحة الشبه الباطلة، وغير ذلك مما سبق بيانه، ولذلك قال ﷺ: «**إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وسنتي ما**

(١) سبق بيان مذهب النحاة في دخول (أل) على (كل وبعض).



إن تمسكتم بهما لن تضلُّوا بعدي»[1] على بعض الروايات، فثبت أن محمد[اً][2] صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، لظهور دينه، وسطوع برهانه، وقاطع دليله، وبالغ حجته.

❑ دوام الشريعة الغراء إلى انتهاء مدة العالم[3]:

إن ما ذكرناه من الوجه الوجيه في بيان أن محمد[اً][4] ﷺ خاتم الأنبياء يستلزم أيضاً؛ دوام دينه من بين الأديان، وبقاءه إلى آخر الزمان، ويقتضي أن يكون أكثرها تبعاً، فإن شرائع من قبله إنما اضمحلت وهُجرت لما اعترى كتبها من التحريف والتبديل، واختلاط مقاصد البشر[5] بالمقاصد الإلٰهية المستوجب سقوط الوثوق بها، وترك العمل بنصوصها، لعدم التمييز بين الحق والباطل، فأهملت بالكلية بخلاف الشريعة المحمدية، فإنها لما كانت معجزة، بل أعظم معجزة ودليل؛ امتنع أن يدخلها شيء غيرها،

---

(١) رواه مالك بلاغاً ووصله ابن عبدالبر من حديث كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده، ولفظه: **«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه»** الموطأ بشرح الزرقاني: ٢٩٤/٤ رقم ١٧٢٧، ورواه الحاكم ٩٣/١ من حديث أبي هريرة ﷺ قال: (خطب النبي ﷺ في حجة الوداع فقال: **«تركت فيكم شيئين ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض»** وله شاهد قوي خرجه العلامة المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى في الصحيحة: ٣٥٥/٤ رقم ١٧٦١، وللعلامة الدهلوي رسالة في هذا الحديث شرحها المصنف وسماها (سعادة الدارين بشرح حديث الثقلين) من مخطوطات المتحف العراقي، أقوم بتحقيقها، يسّر الله إتمامها ونشرها.

(٢) في الأصل (محمد) بالرفع، وهو سهو.

(٣) كتب المصنف في الأصل: (فضل محمد ﷺ على غيره من الأنبياء عليهم السلام) وتحت هذا العنوان كلمة: (لا شك) وقد ضرب عليه، وكتب بدله العنوان الذي أثبت، وما ضرب عليه المصنف سيأتي بعنوان: (بيان أن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين).

(٤) في الأصل (محمد) وهو سهو.

(٥) ينبغي تقييدها بالسيئة أو نحو ذلك، لأن من مقاصد البشر ما يوافق الشرع.

وحفظت مقاصدها الإلهية من المقاصد البشرية، وبذلك استقامت أنوارها ما أشرقت النجوم السماوية، ولذلك قال صلّى الله تعالى عليه وسلّم: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة**»(1) [16/أ].

وشُرّاح الحديث ذكروا لهذا الحديث عدة معانٍ نوردها تكميلاً للفائدة، وتوضيحاً لمقصدنا إن شاء الله تعالى، منها:

[الفائدة الأولى] أن المعنى: إن معجزتي التي تحدّيت بها؛ الوحي الذي أُنزل علي وهو القرآن، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدمه، بل المراد؛ أنه المعجزة العظمى التي اختصّ بها دون غيره(2)، لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينه غيره، تحدّى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه، كما كان السحر فاشياً عند فرعون، فجاء موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا(3)، ولم يقع ذلك بعينه لغيره.

وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور، فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه.

ولهذا لما كان العرب الذين بُعث فيهم النبي صلّى الله تعالى عليه

(1) سبق تخريجه.

(2) تنظر هذه الفوائد في: شرح مسلم بهامش القسطلاني: 2/28 ـ 29، فتح الباري: 9/6 ـ 8 إرشاد الساري: 7/444.

(3) قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف: 117].





وسلم في الغاية من البلاغة، جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك.

ومنها:

[الفائدة الثانية] أن المراد: إن القرآن ليس له مثل لا صورة ولا حقيقة، بخلاف غيره من المعجزات فإنها لا تخلو عن مثل.

ومنها:

[الفائدة الثالثة] أن معناه: إن كل نبي أُعطي من المعجزات ما كان مثله من كان قبله صورة أو حقيقة، والقرآن لم يؤتَ أحد قبله مثله فلهذا أردفه بقوله: «**فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً**».

ومنها:

[الفائدة الرابعة] أن المراد: إن الذي أوتيته لا يتطرق إليه تخييل، وإنما هو كلام معجز [ب/١٧] لا يقدر أحد أن يأتي بما يخيل منه التشبيه به، بخلاف غيره، فإنه قد يقع في معجزاتهم ما يقدر الساحر أن يخيل شبهه، فيحتاج من يميز بينهما إلى نظر، والنظر عرضة للخطأ، فقد يخطئ الناظر فيظن تساويهما.

ومنها:

[الفائدة الخامسة] أن المراد؛ إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة(١)، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره ....

---

(١) قال الإمام أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى في قول النبي ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات**» الحديث: (إنما عنى رسول الله ﷺ هذا القول؛ آيته الكبرى الثابتة الباقية أبد الآباد التي هي أول معجزته حين بُعث وهي القرآن لبقاء هذه الآية على الآباد، وإنما جعلها ﷺ بخلاف سائر آيات الأنبياء عليهم السلام لأن تلك الآيات=

بالمغيبات[1]، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون[2]، يدل على صحة دعواه[3].

ومنها:

[الفائدة السادسة] أن المعنى: إن المعجزات الماضية كانت حسية تُشاهد في الأبصار؛ كناقة صالح، وعصا موسى، ومعجزة القرآن تُشاهد بالبصيرة[4]، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر.

لأن الذي يُشاهد بعين العقل باقٍ يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً. ويمكن نظم هذه الأقوال كلها في واحد، فإن محصلها لا ينافي بعضها بعضاً[5].

وقد رتب قوله: «**فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً**» على ما تقدم من معجزة القرآن المستمرة؛ لكثرة فائدته، وعموم نفعه، لاشتماله على الدعوة والحجة والإخبار بما سيكون، فعمَّ نفعه من حضر ومن غاب، ومن وجد ومن سَيوجَد، فحسن ترتيب الوجوه المذكورة على ذلك، وهذه الوجوه قد تحققت، فإنه أكثر الأنبياء تبعاً.

= يستوي في معرفة إعجازها العالم والجاهل، وأما إعجاز القرآن فإنما يعرفه العلماء بلغة العرب، ثم يعرفه سائر الناس بإخبار العلماء لهم بذلك) الفصل: ١/١١١، وينظر: الجواب الصحيح: ٢/٤١٨ وما بعدها، النبوات: ٣٠٦.

(١) واشتماله على حقائق علمية أثبت العلم الحديث كثيراً منها، ومن الكتب المفيدة في ذلك: الطب محراب الإيمان: للدكتور خالص كنجو، والاكتشافات العلمية الحديثة ومدلولاتها في القرآن: للدكتور سليمان عمر قوش، وكتاب: ثم أسلمت العلوم: للشيخ عادل زين العابدين محمد.

(٢) قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

(٣) ينظر: الأجوبة الفاخرة: ١٧٦ - ١٧٧، ١٧٨.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ٧٢.

(٥) هذا كلام الحافظ ابن حجر بحروفه. ينظر: فتح الباري: ٩/٧.



[موافقة شريعة الإسلام لمقتضى المعقول دليل على دوامها]:

ومن الوجوه الدالة على أن الشريعة المحمدية أدوم الشرائع والأديان [١٨/أ] أنها: موافقة لمقتضى العقول الراجحة[١]، على اختلاف الأزمنة ومرور الأعصار، حتى لا يأتي زمن إلا وفي الشريعة المحمدية من القواعد الكلية ما تشمل قضاياه وحوادثه على وجه يرتضيه العقل السليم، لم تزل محفوظة الموارد، مطردة القواعد، لم يختل منها قاعدة فيحكم العقل بأن هذه القاعدة لم تبق مناسبة لهذا الزمان، ولم تختلف ثمراتها، ولم تطمس آياتها، كما هو مسلم عند من سلِم من داء التعصب، فمن نظر نظر بصير ناقد في هذه الشريعة ظهر له أن فيها قواعد كاملة وافية باحتياج كل زمان، وتبيَّن له؛ أن القواعد الكاملة عند الأمم هي من جملة القواعد التي اشتملت عليها الشريعة المحمدية، غاية الأمر: أنهم أبرزوها بصورة غير صورتها الإسلامية[٢]، وإذا كانوا لم يأخذوها من الشريعة المحمدية فقد صادف وصول عقولهم إليها لأنها من مستحسنات العقول، مع أن الشريعة المحمدية تشتمل عليها أيضاً.

[أهمية القواعد الكلية]:

فالقواعد الشرعية المحمدية تغني الأمة عن الأخذ بسواها، إلا أنه

---

(١) من أحسن ما صنف في ذلك كتابا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول) و(درء تعارض العقل والنقل).

(٢) في هذا رد على من زعم أن في الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي أحكام مستمدة من بعض القوانين الفرنجية، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] والقواعد الشرعية والفقهية مأخوذة من الكتاب والسنة واستقراء مقاصد الشريعة، وخاصة القواعد الشرعية؛ فإنها نصية، بخلاف الفقهية فقد تكون اجتهادية، والقواعد الكلية تدل دلالة قطعية على ثراء الفقه الإسلامي وشموليته وكفايته، ولله در القائل:

وما يستوي شرع من الله محكم ... وقافية في العالمين شرود



يحتاج في ذلك للمعرفة في الشريعة المحمدية، والتبحر في أبوابها، ولا يكفي مجرد اللمح من طرف ضعيف، فمن أراد أن ينشر قواعد مفصلة مشروحة قريبة لفهم العامة لتصلح شأناً من شؤونهم فعليه أن يكلف علماء الشريعة المحمدية المتبحرين فيها أن يجمعوا له منها ما يقوم بمطلوبه، ويفي بمرغوبه، فيجيئونه بالمطلوب الكافي الوافي من تلك الشريعة طبق المراد لصوالح(١) العباد.

على أن السلف قد ألَّفوا في هذا الباب كتباً مفصلة(٢)، تغني الطالب عن سؤال من يقوم بأعباء هذه المقاصد من أبناء هذا الزمان [ب/١٩].

○ بيان أن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين(٣):

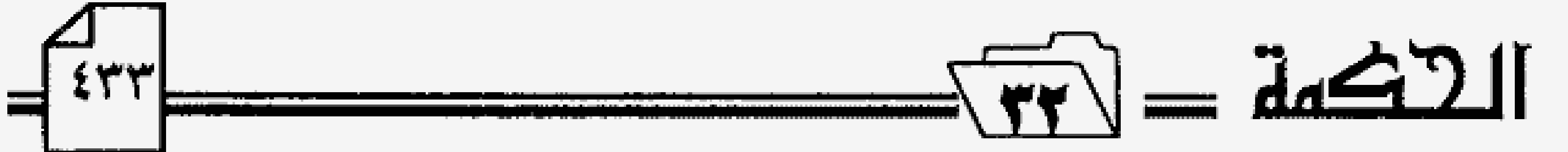
لا شك أن الفضل إما أن يكون بالعلم النافع وإما بالعمل الصالح. والعلم له مبدأ وهو: قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم، وتمام وهو: قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة.

---

(١) الصوالح: أي المصالح، جاء في (المحيط في اللغة) ١٨٢/٣: (وما بعد ذلك صلوح: أي صلاح).

(٢) من تلك الكتب: ١ ـ الأصول التي عليها مدار فروع الحنفية للكرخي عبدالله بن الحسين (ت ٣٤٠هـ). ٢ ـ تخصيص النظر لأبي زيد عبيد بن عمر الدبوسي (ت ٤٣٠هـ). ٣ ـ القواعد الكبرى الذي اشتهر باسم (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) للإمام عز الدين بن عبدالسلام (ت ٦٦٠هـ). ٤ ـ القواعد النورانية الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ). ٥ ـ القواعد الكبرى في فروع الحنابلة لنجم الدين بن سليمان الطوفي (ت ٧١٠هـ). ٦ ـ المنثور في القواعد للزركشي بدر الدين بن عبدالله بن بهادر (ت ٧٩٤هـ). ٧ ـ القواعد في الفقه الإسلامي للإمام عبدالرحمن بن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ). ٨ ـ الأشباه والنظائر للسيوطي جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ). ٩ ـ الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي عمر بن إبراهيم (ت ١٠٠٥هـ) وغيرها كثير.

(٣) كتب المصنف بخطه في الهامش: (فضل محمد ﷺ على غيره من الأنبياء عليهم السلام).





○ [مراتب الكمال في النوع الإنساني]:

وأن مراتب الكمال أربع، وهي:

معرفة الحق، والعمل بالعلم، وتعليم الغير[1]، والصبر على ما يحصل من الأذى في ذلك. ومن وقف على سيرة محمد صلَّى الله تعالى عليه وسلم؛ تبيَّن له رجحانه على غيره في جميع ذلك وأنه بلغ منتهى مراتب الكمال الأربع.

وبسط ذلك وتفصيله يحتاج إلى تحرير سفر كبير، ونحن نبيِّن فضله صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم على سائر إخوانه رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين، بوجه إجمال يثبت مطلوبنا ويرشد إلى مقصودنا، فنقول: إن فضل نبينا محمد صلَّى الله تعالى عليه وسلم وشرفه على غيره من الرسل الكرام والأنبياء العظام عليهم أفضل الصلاة وأكمل السلام، من وجوه عديدة وطرق سديدة، منها:

○ [وجوه المفاضلة بين النبي محمد ﷺ وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام]:

[الوجه الأول] أنه صلَّى الله تعالى عليه وسلم بلغ في الحكمة النظرية؛ كمعرفة الله تعالى وصفاته وأسمائه وأحكامه، وفي الحكمة العملية؛ وهي علم الأخلاق وسياسة المدن وتدبير أمر الخلق وغير ذلك مما اشتمل عليه كتابه القرآن العظيم من العلوم التي لم يحتو عليها غيره، المبلغ العظيم الذي لم يبلغه سواه، فإن علم أمته الذي أنار العالم، وكشف ظلمات الجهالات هو قطرة من بحره، ومن تتبع كتب التاريخ المعتبرة، وأحاط خبراً بأحوال العلماء المحمديين الراسخين في العلم، وسير الواصلين إلى معرفة [٢٠/أ]... [2] الحقائق، وإدراك الأسرار والدقائق، من العبّاد والزهاد،

(١) الصواب أن (أل) لا تدخل على (غير).

(٢) في الأصل: (إلى معرفة إلى معرفة) فحذفت المكرر.

وأرباب القلوب، وذوي البصائر، مما لا يحصيهم عدد، ولا يضبطهم كتاب مفرد؛ اعترف أنه لم يكن مثلهم في أمة موسى، ولا أمة عيسى، ولا في سائر أمم الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم أجمعين.

ولا شك أن كمال كل أمة بكمال نبيِّها ورسولها، ولما كانت الأمة المحمدية أفضل الأمم وأكملها علماً وعملاً؛ كان النبي صلَّى الله تعالى عليه وسلّم أفضل الأنبياء وأكملهم في ذلك، كيف لا وكتابه القرآن العظيم هو خُلُقه، بمعنى أنه كان يأمر بما أمر به وينهى عما نهى عنه، عالماً بما حواه عاملاً بمنطوقه ومفهومه وفحواه، واقفاً على جميع أسراره ومزاياه، وهو صلَّى الله تعالى عليه وسلم مظهر له[1]، ولهذا أنزل عليه فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

وأما غيره من الرسل والأنبياء عليهم السلام، فقد كانوا مظهر كتبهم، وهي معرفتهم وكمالهم وخلقهم.

والمنصف غني عن إثبات مزية القرآن العظيم على غيره من الكتب المقدسة و[أنه][2] أكثرها شمولاً للعلوم والمعارف.

وليس يصح في الأعيان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

فإن معاني القرآن غير محدودة[3] وعلومه ليست بمحصورة ولا معدودة، وقد اتسع مجاله في كل فن؛ من أخبار وأحكام ومواعظ وأمثال وأخلاق وآداب وترغيب وترهيب ومدح الأخيار وذم الفجار، وتحذير من قبائح السجايا، ومواقع الدنايا، وتدبير السياسات، ومراعاة الأفهام، ومدافعة

(١) ينظر: تفسير القرطبي: ١٠/١٢٨ ـ ١٢٩، تفسير ابن كثير: ٤/٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٢) زيادة مني يقتضيها السياق، ويظهر أنها سقطت سهواً.

(٣) قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝١٠٩﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾ [لقمان: ٢٧]، وينظر: تفسير ابن كثير: ٣/١٠٦ و٤٣٥.



الأعداء، ومجادلة الأخصام، وتبكيت[1] الطغام[2]، وإقامة الدلائل على وجود الباري تعالى [ب/٢١] وتوحيده، وعلى الحشر والنشر، ودفع الشبه، وإزالة الريب، ووصف دار النعيم وأحوال سكانها، ودار الجحيم وأهوالها، ووصف عالم السموات، وما في العالم العلوي من الآيات؛ من كواكب وأمطار، وسحائب وبروق ورعود وعجائب، ووصف الأرض وجبالها، وسهولها وبحارها، وينابيعها وأنهارها، وما اشتملت عليه من نباتات وحيوانات ومعادن وأزهار وأثمار وأشجار وأطيار وظلمات وأنوار، حتى يصح أن يقال؛ أنه لم يبقَ علم من علوم الأوائل والأواخر إلا صرح به أو أشار إليه، على أساليب متنوعة وطرائق مبتدعة، لم يقع فيها تناقض، ولم يتخلله تضارب، خالياً من جميع العيوب، خارجاً بحسن نظمه عن مشابهة كل أسلوب، ليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يُقتدى به، فلا هو من أنواع القصائد العربية، ولا من الأراجيز[3] البدوية، ولا من الخطب القسية[4]، ومع ذلك فهو في العقول مستحسن، وفي النفوس مستملح، وفي الأذواق مستعذب، وفي القلوب محبوب وللأسماع مألوف، كلما تكرر حلا، ومن أي الأفواه سمعته علا وغلا، مع اقتران معانيه المتغايرة، واقتران نظائرها في السور المختلفة، فيخرج في السورة من وعد إلى وعيد ومن ترغيب إلى ترهيب، ومن ماضٍ إلى مستقبل، ومن قصص إلى مثل ومن حكم إلى جدل، فلا ينبو ولا يتنافر، وهي في غيره من الكلام متنافرة، فتتجانس معانيها. أما التوراة؛ فإنها مقسومة على خمسة أسفار، كل سفرٍ منها مفرد بمعنى [أ/٢٢] واحد من المعاني المستودعة فيها.

---

(١) التبكيت: كالتقريع والتعنيف، وبكته بالحجة تبكيتاً: غلبه. الصحاح: ٢٤٤/١ مادة (بكت).

(٢) الطغام: أوغاد الناس، الواحد والجمع سواء، الصحاح: ١٩٧٥/٥ مادة (طغم).

(٣) الأراجيز: جمع أرجوزة، وهو الرُّجَازة، والمصدر: الرَّجَز، الرّجّاز، والراجز، والرّجز الفعل. العين: ٦/٦ مادة (رجز).

(٤) الخطب القسية: نسبة إلى قس بن ساعدة الإيادي.

فالسفر الأول: لذكر بدء الخلق.

والسفر الثاني: لخروج بني إسرائيل من مصر.

والسفر الثالث: لأمر القرابين.

والسفر الرابع: لإحصاء موسى بني إسرائيل وما دبرهم به.

والسفر الخامس: لتكرير النواميس.

وجعل اختلاف معانيها موجباً لتفاضلها، فكان أفضل ما في التوراة عند اليهود؛ العشر الكلمات، المشتملة على الوصايا التي خاطب الله تعالى بها موسى، وبها يستحلفون دون غيرها.

وأفضل ما في الإنجيل؛ الصحف الأربعة، المنسوبة إلى تلامذة المسيح الأربع، وهي المخصوصة بالقراءة في الصلاة والأعياد.

وأفضل ما في الزبور؛ ما اتفق أهل الكتابين على اختياره.

وما اشتمل عليه القرآن من تغايرها أولى من وجهين:

أحدهما: أن لا يختص قارئه بأحدها فيعدل عن غيره.

والثاني: أن يستوعب، إذا أراد جميعها قرأه جميعه، فيكمل فوائده، ويستجزل ثوابه.

[الوجه الثاني] ومن الوجوه الدالة على أنه صلى الله عليه وسلَّم أفضل: أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أُرسل إلى الخلق كافة، فإنه بعد أن أقام الدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة والمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة؛ على نبوته، وصدق دعوته؛ كتب إلى كسرى وقيصر والمقوقس، وملك الحبشة؛ النجاشي، وملك عمان، وملك البحرين، وغيرهم من ملوك الأرض




المشهورين في زمن بعثته(1)، يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، والإقرار برسالته صلّى الله تعالى عليه وسلم، وهذه الكتب موجودة بعينها(2) في كتب التواريخ والسير، بل [ب/23] ومنها محفوظة في خزائن الملوك بعينها(3) إلى

(1) روى مسلم عن أنس ﷺ: (أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم الى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلّى عليه النبي ﷺ) صحيح مسلم: ٧٩٧ رقم ٧٥ (١٧٧٤)، وكتاب النبي ﷺ إلى كسرى بعثه (مع عبدالله بن حذافة السهمي فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى...) البخاري: ٩٠/٣ - ٩١ ولم يذكر البخاري نص الكتاب، وإنما ذكره الواقدي والطبري: ٢٩٥/٢ - ٢٩٦، وأبو عبيد في الأموال: ٣١ - ٣٢ الأرقام ٥٧ - ٥٩ بأسانيد ضعيفة. ينظر: نصب الراية: ٤٢٠/٤ - ٤٢١، إرشاد الساري: ٤٥٩/٦، تعليق الشيخ الألباني على فقه السيرة للغزالي: ٣٨٨، السيرة النبوية الصحيحة للعمري: ٤٥٨/٢. وكتابه ﷺ إلى قيصر بعثه مع دحية بن خليفة الكلبي ونص الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. جزء من حديث طويل أخرجه البخاري: ٨/١ - ١٠، ومسلم: ٧٩٥ - ٧٩٧ رقم ٧٤ (١٧٧٣)، قال د. أكرم العمري: (وهو النص الوحيد الذي ثبتت صحته وفق شروط المحدثين من بين سائر نصوص الكتب التي وجهت إلى الملوك والأمراء التي ينبغي أن تُنقَد من جهة المتن والسند معاً قبل اعتمادها تاريخياً فضلاً عن الاستدلال بها في مجال التشريع) السيرة النبوية الصحيحة: ٤٥٦/٢، وكتابه ﷺ إلى ملك البحرين بعثه مع العلاء بن الحضرمي والحديث رواه الواقدي في آخر كتاب الردة كما في نصب الراية: ٤٢١/٤ - ٤٢٢، وكتابه ﷺ إلى ملكي البحرين جيفر وعُبادة ابني الجلندي الأزديين مع عمرو بن العاص كما في نصب الراية: ٤٢٣/٤ - ٤٢٤، ونصوص هذه الكتب - باستثناء كتاب النبي ﷺ إلى هرقل - لم تثبت من الناحية الحديثية، ولا يعني ذلك نفي إرسالها إلى هؤلاء الملوك والحكام. ينظر السيرة النبوية الصحيحة: ٤٥٨/٢ - ٤٥٩.

(2) ذكرت في الهامش السابق أن نصوص هذه الكتب ضعيفة من جهة السند باستثناء الكتاب الذي بعث به النبي ﷺ إلى هرقل. وينظر المصدر السابق: ٤٥٨/٢ - ٤٦٠.

(3) إذا كان مراد المصنف؛ النص فهي كدعواه السابقة، وإن كان مراده النص والمكتوب=

اليوم، فصار بعموم الإنذار والجهر بالدعاء إلى التوحيد والإسلام عام النبوة؛ مبعوثاً إلى كافة الأمة، فكمل الله تعالى بذلك نبوته وتمم به رسالته، فصدع بأمره، وقام بحجته، وجاهد بإنذاره، وعمَّ بدعائه، وجاهد في الله حق جهاده، حتى خصم الأمم حين جادوله، وصابرهم حين عادوه، وجمعهم

= فيه من ورق أو غيره فهي دعوى أخرى يصعب إثباتها، ويبدو أن المصنف أراد الثانية وهو ما ذهب إليه بعض المستشرقين وتبعهم فيه بعض المعاصرين من أهل العلم، ولإتمام الفائدة أسوق ما ذكره د. أكرم العمري في كتابه القيم: (السيرة النبوية الصحيحة) ٤٥٩/٢ ـ ٤٦٠ هامش ١ ـ قال: (عثر المستشرق الفرنسي بارتليمي (Barthelemy) على رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس مكتوبة على ورق جلدي قديم بناحية أخميم من صعيد مصر سنة ١٨٥٠ ميلادية، وقد نشرتها المجلة الآسيوية سنة ١٨٥٤ ميلادية وهي محفوظة في متحف طوب قبو سراي بأستنبول وتبدو داكنة ورقيقة وقد أصابها تشقق من وسطها، ولكنها ما زالت مقروءة. وقد وثق بها المسيو بلين (Belin) ووافقه نولدكه. وأعلن الدكتور بوش (Busch) الألماني سنة ١٨٦٣ ميلادية في مجلة المستشرقين الألمان العثور على رسالة النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى، ولم تحظَ بالتأييد الكافي. ونشر المستشرق الإنكليزي دنلوب (Dunlop) في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٤٠ ميلادية أنه حصل على رق جلدي فيه رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي، ولكنه شك في صحتها. وأعلن الدكتور صلاح الدين المنجد في جريدة الحياة البيروتية سنة ١٩٦٣ ميلادية عن الكشف عن رسالة النبي ﷺ إلى كسرى مرجحاً صحتها، ولكن الثابت أن كسرى مزق الرسالة!! كما كشف عن وثيقة خامسة من وثائق العهد النبوي سنة ١٩٧٣ وهي قديمة يزيد عمرها على ألف سنة، ولكن لم يقطع بتوثيقها حتى الآن، وقد شك معظم المستشرقين في صحة إرسال الرسائل بالجملة منهم المستشرق الإنكليزي وليام ميور في كتابيه (حياة محمد) و(الخلافة)، والمستشرق الإيطالي ليون كايتاني في كتابه (حوليات الإسلام) والمستشرق اليهودي مرجليوت في كتابه (محمد). وتتلخص اعتراضاتهم بأن الإسلام دين يخص العرب وأن الدولة الإسلامية كانت ضعيفة لا يمكنها تحدي القوى العالمية آنذاك، وبأن ابن إسحق لم يذكرها، وبأن فيها تفاصيل أسطورية، وبأن بعض الرسائل تشتمل على آيات قرآنية قيل أنها نزلت بعد تاريخ الرسائل بسنتين. [هي الآية التي في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل]. وهذه الملاحظات لا تقوى على هدم الأساس التاريخي لوجود الرسائل، كما أن الرسائل التي عُثِر عليها تحتاج إلى دراسة مختبرية وتوثيقية للقطع بصحتها أو عدمها).

غفير وجمعهم كثير إلى أن علت كلمته وظهرت دعوته، وكابد من الشدائد ما لم يثبت عليها إلا معصوم ولا سلم منها إلا منصور.

وأما إخوانه رسل الله صلوات الله عليهم؛ فكان كل واحد منهم مرسلاً إلى أمة مخصوصة من الأمم[1]، ولا شك أن من له استعداد في تبليغ الرسالة إلى الخلق كافة، وله قوة في تنفيذ أوامر الله إلى الأمم جميعاً؛ أعظم قدراً ممن لم يكن بهذه المثابة، بل له اقتدار على تبليغ الرسالة إلى أمة مخصوصة فقط.

[الوجه الثالث]:

ومن الوجوه الدالة على أنه ﷺ أفضل: أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم اختص بستين خصلة لم توجد في غيره من أنبياء الله تعالى ورسله صلوات الله تعالى عليهم أجمعين، وفي تفصيلها وذكرها طول، وقد ذكرها أبو سعيد النيسابوري في كتاب (شرف المصطفى)[2] مفصلة فمن أرادها فليراجع هذا الكتاب، فإنه كتاب مشهور، وهذه الخصال كلها خصال علية، ومزايا مرضية تستوجب رجحان من قامت به على غيره.

[الوجه الرابع]:

ومن الوجوه السابقة: أن ما ترتب على بعثة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من الفوائد والثمرات [٢٤/أ] في العالم المدني، أعظم من غيره وأجلّ وأكثر، وذلك أن الرسول هو الذي يعالج الأرواح البشرية، وينقلها

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يُعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى كل أحمر وأسود...**» البخاري: ١/٨٧ ـ ٨٨، مسلم: ٢٤٥ رقم ٣ ـ (٥٢١) واللفظ له.

(٢) لم أقف عليه، وقد ذكره السخاوي في كتابه (القول البديع في الصلاة والسلام على الحبيب الشفيع) ص ٤٦، دار الكتب العلمية ـ بيروت ط/٣ ١٣٩٧هـ.

من الاشتغال بغير الله إلى الاشتغال بعبادته[1]، فلما كان المقصود من الرسالة والنبوة هو هذا المعنى، فكل من كان صدور هذه الفوائد عنه أكثر وأكمل وجب القطع بأن رسالته أعظم وأكمل.

إذا عرفت هذا فنقول أن تأثير دعوى موسى عليه السلام كانت مقصورة على بني إسرائيل فقط.

وأما دعوة عيسى عليه السلام، فكأنه لم يظهر لها تأثير إلا في أقل قليل، وذلك لأنا نقطع بأنه ما دعا إلى الدين الذي يقول به هؤلاء النصارى، لأن القول بالأب والابن والتثليث أقبح أنواع الكفر، وأفحش أقسام الجهل، ومثل هذا لا يليق بأجهل الناس، فضلاً عن الرسول المعظم المعصوم. وقد برهن الشيخ رحمة الله الهندي في الباب الرابع من كتابه (إظهار الحق) على إبطال التثليث، بالبراهين العقلية التي لا مجال لإنكارها، وبأقوال المسيح عليه السلام المنصوصة عندهم[2]، وكذا من تقدمه من أساطين الأمة؛ فعلمنا أنه ما كانت دعوته البتة إلى هذا الدين الخبيث، وإنما كانت دعوته إلى التوحيد والتنزيه[3]، ثم إن تلك الدعوة ما ظهرت البتة، بل بقيت مطوية غير مروية، فثبت أنه لم يظهر بدعوته إلى الحق أثر البتة.

أما دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إلى التوحيد والتنزيه فقد وصلت إلى أكثر بلاد المعمورة، والناس قبل وصوله كانوا على الأديان

(١) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

(٢) لم يوردها تصديقاً بها، ولكن إلزاماً للخصم من باب: من فمك أدينك.

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].



الباطلة، فعبدة الأصنام كانوا مشتغلين بعبادة الحجر والخشب [ب/٢٥] واليهود كانوا في دين التشبيه، وصنعة التزوير، وترويج الأكاذيب، وغير ذلك من المفاسد.

والمجوس كانت في عبدة الإلهين[١] ونكاح الأمهات والبنات.

والنصارى كانوا في التثليث.

والصابئة كانوا في عبادة الكواكب، فكأن كل أهل العالم كانوا معرضين عن الدين الحق ومذهب الصدق.

فلما أرسل الله تعالى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم إلى هذا العالم بطلت الأديان الخبيثة[٢]، وزالت المقالات الفاسدة، وطلعت شموس التوحيد، وأقمار التنزيه، من قلب كل أحد، وانتشرت تلك الأنوار في بلاد العالم.

فثبت أن دين محمد صلّى الله تعالى عليه وسلم في علاج القلوب المريضة، والنفوس الظلمانية، كان أتم وأكمل من تأثير دعوة سائر الأنبياء، فوجب القطع بأنه أفضل من جميع الأنبياء والرسل في كل ما يتعلق بالنبوة والرسالة، وهذا برهان ظاهر من باب البرهان اللّمي[٣]، فإننا بحثنا عن حقيقة النبوة والرسالة ثم بينّا أن كمال تلك الماهية ما حصلت لأحدٍ من الأنبياء كما حصلت لمحمد صلّى الله تعالى عليه وسلم.

---

(١) أي إله النور وإله الظلام.

(٢) مراده؛ أن الله تعالى بيّن بطلانها، لا أنها كانت صالحة ثم بطلت.

(٣) البرهان عند المنطقيين قسمان: لميّ وإنّي. والبرهان اللّمي: هو ما كان الحد الأوسط علة لثبوت الأكبر للأصغر ذهناً وخارجاً، كما في قولنا: (محمد مؤمن وكل مؤمن يدخل الجنة، محمد يدخل الجنة) وقد يعرف: بأنه ما يستدل فيه بالعلة على المعلول. وسمي لمياً لأنه يفيد اللمية، أي العلية. إذ يجاب بـ(لم) فإذا قيل: (محمد يدخل الجنة) فقلت: لم؟ فيُجاب: لأنه مؤمن وكل مؤمن يدخل الجنة. والبرهان الإني: هو ما كان الحد الأوسط علة في ثبوت الأكبر للأصغر في الذهن دون الخارج، أو هو ما يستدل به في المعلول على العلة كقولنا: (محمد يدخل الجنة وكل من يدخل الجنة مؤمن. محمد مؤمن). التعريفات: للجرجاني: ٤٤ علم المنطق: أ.د محمد رمضان ٩٦ ـ ٩٨.

[الوجه الخامس]:

ومن الوجوه السابقة: أن نبينا محمداً صلَّى الله تعالى عليه وسلم قد خصَّه الله تعالى من الآيات المعجزات بما حاكى جميع معجزات غيره من الأنبياء والرسل الكرام عليهم أفضل الصلاة وأكمل السلام، وقد فصلت ذلك أتم تفصيل في كتاب (كنز السعادة في شرح كلمتي الشهادة)(١) وتفصيلها في هذا [٢٦/أ] المقام يستوجب التطويل.

ولا شك أن النبوة والرسالة التي كثرت دلائلها وبراهينها أظهر من النبوة والرسالة التي لم تكن كذلك.

فمحمد صلَّى الله تعالى عليه وسلم أفضل من سائر إخوانه من هذه الجهة أيضاً، فإنه أعم الأنبياء والرسل إعجازاً، وأوضحهم طريقة وامتيازاً، وأكثرهم تأييداً إلٰهياً، وخطاباً ربانياً، تقهر شواهده من باين وعاند، وتحج دلائله من ناكر وجاحد؛ فثبت أن محمداً ﷺ أشرف النبيين والمرسلين قدراً، فإنه قد خُص بمزايا تقف دونها الأماني حسرى، وامتاز بخواص علمية وعملية لا يستطيع لسان الدهر لها حصراً، ورقى أعلام فضل رُفِعت له على كواهله الأعلام، وطأطأت له شرفات الشرف فقبّلت منه الأقدام، فهو المبعوث رحمة للعالمين، والمنعوت بالخلق العظيم من بين المرسلين، والمنزل عليه قرآن مجيد ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصِّلَت: ٤٢]، والمؤيد دينه المؤيد بالمعجزات المستمرة الباهرة، والفائز بالمقام المحمود، والشفاعة العظمى في الآخرة.

○ في بيان أن شريعة محمد ﷺ أتم الشرائع وأكملها وأيسرها:

من نظر إلى شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وجدها شريعة قهر وجلال(٢)، أُمروا

---

(١) من مؤلفات المصنف المطبوعة.

(٢) الجلال: العظمة. الصحاح: ١٦٥٧/٤ مادة (جلل). والمراد أنها ثقيلة.



بقتل نفوسهم[1]، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات[2]، وحرمت عليهم الغنائم[3]، وعُجل لهم من العقوبة ما عُجلَ[4]، وحملوا من الآصار[5] والأغلال[6] ما لم يحمله على غيرهم. وكان موسى عليه السلام من أعظم خلق الله هيبة وأشدهم بأساً وغضباً لله، وبطشاً بأعداء الله.

وأما عيسى عليه السلام فقد كان في مظهر الجمال، وكانت شريعته شريعة [ب/٢٧] فضل وإحسان، وليس في شريعته قتال البتة، وليس فيها مشقة ولا آصار ولا أغلال.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤].

(٢) قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦]. وقال سبحانه في بيان ما كان حلالاً لهم: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٣].

(٣) قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وفي الصحيحين: «**وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد** ـ وفي رواية: لنبيّ ـ قبلي» جزء من حديث رواه البخاري: ١/٨٧ ـ ٨٨، مسلم ٢٤٥ رقم ٣ ـ (٥٢١) وقد سبق ذكر جزء منه في هامش سابق، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**غزا نبيٌ من الأنبياء**... وفيه: **فأقبلت النار فأكلته. فلم تحل الغنائم لأحدٍ من قبلنا**» مسلم: ٧٨٣ رقم ٣٢ ـ (١٧٤٧). وهذه النصوص تدل على تحريم الغنائم على جميع الأمم، ولم تحرم في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فقط، وإنما أحلت لنبينا ﷺ وأمته.

(٤) قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣] وغيرها من الآيات.

(٥) الإصر: الثقل: قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير، والإصر أيضاً: العهد. قاله ابن عباس والضحاك والحسن. الجامع لأحكام القرآن: ٤/٦٥٩.

(٦) الأغلال: جمع غل ـ بضم الغين، يقال: في رقبته غل من حديد، والأغلال هنا عبارة مستعارة عن الأثقال (الآصار). الصحاح: ٥/١٧٨٣ مادة (غلل) القرطبي: ٤/٦٦٠.

وأما نبينا محمد ﷺ فكان مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في الله والرحمة. فشريعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أكمل الشرائع ولذلك أتت شريعته بالعدل إيجاباً له وفرضاً، وبالفضل ندباً له واستحباباً، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويأمر به، والفضل ويندب إليه، حرم علينا كل خبيث، وأباح لنا كل طيب ونافع، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وأيضاً؛ فقد برهنا أن الشريعة الغراء لا يتطرقها تبديل ولا تغيير كما تطرق غيرها، فأعرضوا عنها.

أما اليهود؛ فقد تركوا شريعة موسى عليه السلام، وتمسكوا بما شرعه أحبارهم وعلماؤهم، فمن ذلك؛ أنهم يقولون في صلاتهم: اللهم اضرب ببوق عظيم لفيفنا، واقبضنا جميعاً من أربعة أقطار الأرض إلى قدسك سبحانك يا جامع شتات قوم إسرائيل.

فهذا قولهم في صلاتهم مع علمهم أن موسى وهارون عليهما السلام لم يقولا شيئاً من ذلك ولكنها فصول لفقوها بعد زوال دولتهم وملكهم.

ومنه؛ صيامهم الذي جعلوه فرضاً، كصوم إحراق بيت المقدس، وصوم حصى، وصوم كذلبا، مع أن موسى ويوشع بن نون عليهما السلام لم يصوما ذلك. وكذلك صوم صلب هامان، وليس شيء من ذلك في التوراة، مع أن الله تعالى [٢٨/أ] قال فيها:

لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به، ولا تنقصوا منه شيئاً[1].

---

(١) هذا مع أن معناه حق إلا أنه لا يجوز الجزم بأن الله تعالى قال ذلك في التوراة ـ كما هو ظاهر صنيع المصنف، وإن لم يقصده ـ لما عُلم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة أن اليهود حرفوها، وقد قال ﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»** رواه البخاري: ٣٠٧/٤ كتاب التوحيد باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها.

ومنه؛ أنهم اتفقوا على تعطيل الرجم للزاني مع أنه مخالف لحكم التوراة[1].

ومنه[2]؛ ما شددوا على أنفسهم في باب الذبائح وغيرها مما ليس له أصل عن موسى عليه السلام، ولا هو في التوراة، وإنما هو من وضع الحخاميم[3] وآرائهم - وهم فقهاؤهم -، وذلك أنهم اجتمعوا على تأليف كتابين: أحدهما المشنا. والآخر: التلموذ[4].

فأما المشنا؛ فهو الكتاب الأصغر، ويبلغ حجمه نحو ثمانمائة ورقة[5].

وأما التلموذ؛ فهو الكتاب الأكبر ومبلغه نحو نصف حمل بغل لكثرته.

ولم يكن الفقهاء الذين ألَّفوه في عصر واحد، وإنما ألَّفوه جيلاً بعد

---

(١) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا. فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال: **«ما تجدون في التوراة على من زنى؟»** قالوا: نسوِّد وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويُطاف بهما. قال: **«فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين»**. فجاؤوا بها وقرؤوها، حتى إذا مروا بآية الرجم، وضع الفتى، الذي يقرأ، يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها. فقال عبدالله بن سلام، وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليرفع يده. فإذا تحتها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجِما) صحيح مسلم: ٧٦٣ رقم ٢٨ - (١٧٠٠)، أبو داود: ١٥٢/٤ رقم ٤٤٤٨، ابن ماجه: ٨٥٥/٢ رقم ٢٥٥٨، الفتح الرباني: ١٢٩/١٨ رقم ٢٥٨، وينظر: أسباب النزول: للواحدي: ١٩٥ - ١٩٦، لباب النقول: للسيوطي: ٩١ - ٩٢، وهذا مما أبقاه الله تعالى في التوراة خزياً لهم، قال أبو محمد ابن حزم: (وأما استشهاد رسول الله ﷺ بالتوراة في أمر رجم الزاني المحصن وضرب ابن سلام رضي الله عنه على يد ابن صوريا إذ جعلها على آية الرجم فحق، وهو مما أبقاه الله خزياً لهم وحجة عليهم) الفصل: ٢١٢/١.

(٢) من هنا إلى قول المصنف: (ما بدله النصارى) مأخوذ من هداية الحيارى: لابن القيم: ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) في الأصل: (الخخاميم) بخاءين معجمتين والصواب بحاء مهملة بعدها خاء معجمة.

(٤) في هداية الحيارى: ١٧٥: (التلمود) بدال مهملة.

(٥) هذه عبارة ابن القيم في هداية الحيارى، وعليه فإن هذا العدد يقصد به الأوراق التي كانت في زمن ابن القيم لا التي كانت في زمن المصنف.

جيل، فلما نظر المتأخرون منهم إلى هذا التأليف، وأنه كلما مر عليه الزمان زادوا فيه، وأن في الزيادات المتأخرة ما يناقض أوائله؛ علموا أنهم لم يُمنعوا من الزيادة فيه، أدى إلى الخلل الذي لا يمكن سده، فمنعوا من الزيادة فيه، وحرموا إضافة شيء إليه، فوقفوا على ذلك المقدار.

وكانوا قد حرموا في هذين الكتابين؛ مؤاكلة من كان على غير ملتهم، للأكل من ذبائحهم، لما علموا أن دينهم لا يبقى في هذه الجلوة[1]، مع كونهم تحت الذل والعبودية إلا أن يصدوهم عن من هو على غير ملتهم، ولما لم يمكن تقرير ذلك إلا بحجة يبتدعونها من عند أنفسهم؛ اختلقوا كتاباً من عند أنفسهم في علم الذباحة، فوضعوا من التشديد والآصار ما شغلوهم به عمّا هم فيه من الذل والمشقة، وذلك أنهم أمروهم أن ينفخوا الرئة ويملؤوها هواء ويتأملوها؛ هل يخرج الهواء منها أم[2] لا؟ فإن خرج منها الهواء حرموا الذبيحة، وإن كان بعض أطراف الرئة لاصقاً ببعض لم يأكلوا منها، وأمروا الذابح أن يتفقد لهم الذبيحة؛ بأن يدخل يده في بطنها ويتجسس[3] بإصبعيه، فإن وجد القلب ملتصقاً بالظهر أو أحد الجنبين ـ ولو

---

(١) الجلوة: ـ بكسر الجيم ـ ضد الخلوة، وجلا العروس يجلوها جلاء وجلوة، واجتلاها: بمعنى: نظر إليها. الصحاح: ٢٣٠٣/٦ ـ ٢٣٠٥ مادة (جلا).

(٢) (أم) هذه هي المتصلة أو المعادلة، والأصل فيها أن تأتي بعد همزة التسوية أو همزة الاستفهام المغنية عن (أي) قال ابن مالك في ألفيته:

(أم) بها اعطف إثر همز التسوية ... أو همزة عن لفظ (أي) مغنية

وقد وقعت (هل) هنا موقع الهمزة المستفهم بها عن التعيين، واستغني بها عن الهمزة، وهو جائز، و(أم) بعدها متصلة غير منقطعة، واستشهد ابن مالك على جوازه بما رواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال لجابر بن عبدالله رضي الله عنهما: «**هل تزوجت بكراً أم ثيباً**» ومنه أيضاً قول كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة الثلاثة الذين خلفوا: (هل حرك شفتيه بردّ السلام علي أم لا) البخاري ٨٨/٣ كتاب المغازي باب غزوة تبوك، مسلم: ١١٦٦ ـ ١١٧٠ رقم ٥٣ ـ (٢٧٦٩). ينظر: شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح: ٢٩٥، شرح ابن عقيل: ٢٢٩/٢، شرح قطر الندى: ٣٠٦.

(٣) جسّه بيده، أي: مسه. مختار الصحاح: مادة (جسس).



كان الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة ـ حرموه ولم يأكلوه، وسموه: طريفا. ويعنون بذلك [ب/٢٩]؛ أنه نجس، وأكله حرام.

وهذه التسمية هي أصل بلائهم، وذلك أن التوراة حرمت عليهم أكل الطريفا، والطريفا هنا: هي الفريسة التي يفترسها السبع أو الذئب أو غيرهما من السباع، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣][١]. والدليل على ذلك؛ أنه قال في التوراة: ولحم في الصحراء طريفا لا تأكلوه وللكلب ألقوه.

فتعدوا في تفسير الطريفا عن موضعها واختلقوا من أنفسهم هذيانات وخرافات تتعلق بالرئة والقلب، وقالوا: ما كان من الذبائح سليماً من تلك الشروط فهو: رحنا[٢] ومعنى هذه اللفظة؛ أنه طاهر. وما كان خارجاً من هذه الشروط فهو: طريفا، وتفسيرها؛ أنه حرام. ثم اختلفت اليهود في ذلك اختلافاً كثيراً، واختلقوا كذباً وبهتاناً عظيماً، وتفصيله لا يسعه المقام.

ما بدله النصارى وغيَّروه من الدين:

وأما النصارى فقد بدلوا دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيَّروه أيضاً حتى اضمحل بالكلية ولم يبق بأيديهم منه شيء، وقد ركبوا ديناً بين دين المسيح ودين الفلاسفة عبدة الأصنام، وراموا بذلك أن يتلطفوا الأمم حتى يُدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى الصور التي لا ظل لها[٣]، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس.

---

(١) ينظر تفسيرها في: الجامع لأحكام القرآن: ٢٢/٤، تفسير ابن كثير: ١١/٢.

(٢) كذا في الأصل، وفي هداية الحيارى: ١٧٦ (دخيا).

(٣) قال عمر رضي الله عنه: (إنا لا ندخل كنائسكم من أجل التماثيل التي فيها الصور) ذكره البخاري تعليقاً: ٨٧/١، ووصله عبدالرزاق: ٤١١/١ رقم ١٦١٠، ويراجع تغليق التعليق.

هذا ومعهم بقايا من دين المسيح؛ كالختان والاغتسال من الجنابة وتعظيم السبت وتحريم الخنزير وتحريم ما حرمته التوراة إلا ما أحل لهم بنصها، ثم تناسوا الشريعة إلى أن استحلوا الخنزير وأحلوا السبت وعوَّضوا عنه يوم الأحد وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة(1).

وكان المسيح عليه السلام يصلّي إلى بيت المقدس، فصلّوا هم إلى المشرق، وعظموا الصليب وعبدوه، وصاموا [٣٠/أ] صوماً لم يصمه المسيح ولا شرعه ولا أمر به البتة، وتعبدوا بالنجاسات، وكان المسيح عليه السلام في غاية(2) الطهارة.

وكان قصدهم؛ تغيير دين اليهود ومراغمتهم، فغيَّروا دين المسيح، وتقربوا إلى الفلاسفة وعبدة الأصنام، فوافقوهم في بعض الأمر ليرضوهم به، وليستنصروا بذلك على اليهود، ولما تبدل دين المسيح وأخذ في التغير والنَّسَاء، اجتمعت النصارى عدة مجامع تزيد على ثمانين مجمعاً لإصلاح دين المسيح واجتماع كلمة النصرانية، ثم تفرقوا على الاختلاف ولعن بعضهم بعضاً، حتى قال فيهم بعض العقلاء: لو اجتمع عشرة من النصارى يتكلمون في حقيقة ما هم عليه لتفرقوا عن أحد عشر مذهباً.

حتى جمعهم قسطنطين الملك آخر ذلك من الجزائر والبلاد وسائر الأقطار، فاجتمع كل بترك وأسقف وعالم، فكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر، فقال: أنتم اليوم علماء النصرانية وأكابر النصارى، فاتفقوا على أمر تجتمع عليه كلمة النصرانية، ومن خالفه لعنتموه، فقاموا وقعدوا وفكروا وقدروا. ثم اتفقوا على وضع الأمانة التي بأيديهم اليوم، ثم تفرقوا فاجتمعوا ثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً، وهكذا في أزمنة كثيرة.

وهذا حال المتقدمين مع قربهم من أيام المسيح، ووجود أخباره فيهم،

---

(1) ينظر: الملل والنحل: ٤٨/٢، والجواب الصحيح: ١٢٧/١، ٥٧٢، هداية الحيارى: ١٨٤.

(2) الصواب أن يقول: بلغ الغاية في الطهارة. والغاية: مدى الشيء، والجمع؛ غايٌ، كساعة وساعٍ. الصحاح: ٢٤٥١/٦ مادة (غيا).



والدولة دولتهم، والكلمة كلمتهم، وعلمائهم إذ ذاك أوقر ما كانوا، وهم مع ذلك على الحال التي ذكرناها، فما ظنك بمن في عصرنا هذا وهم نخالة الماضين، وزبالة الغابرين، وقد طال عليهم الأمد وبَعُدَ عهدهم بالمسيح ودينه، وقد بينّا السبب في تطرق التحريف والتبديل للشرائع السالفة حيث لم تكن معجزة[1].

ومن الدلائل على أن الشريعة المحمدية أتم: أنها جمعت ما تفرق من محاسن الشرائع المتقدمة، ولخصت زبدها، وما ذلك إلا لأنها خاتمة الشرائع [ب/ ٣١] فجعلها الله تعالى جامعة لمحاسنها، مثال ذلك: أن الشرائع المتقدمة بعضها حكم بالقصاص وبعضها حكم بالعفو، والشريعة المحمدية جمعت بين الحكمين، فأجازت لولي المقتول أن يقتص من القاتل وأن يعفو، ورغّبه بالعفو بأنه أقرب للتقوى[2]، وهكذا الحال في كثير من الأحكام.

ومنها؛ أنها أوسع الشرائع، فإنها أوضحت للأمة جميع ما كُلِّفوه من العبادات، وبيَّنت لهم ما يحل ويحرم من مباحات ومحظورات، وفصلت ما يجوز ويمتنع من عقود؛ مناكح ومعاملات، حتى احتاج سائر الملل في كثير من معاملاتهم ومواريثهم لهذه الشريعة، ولم تحتج هي إلى شريعتهم.

ثم إن فيها أصولاً تدلُّ على الحوادث المغفلة، وتستنبط منه الأحكام المهملة، فأغنت عن نص بعد ارتفاعه، وعن التباس بعد إغفاله، وهي على سعتها محصورة في قواعد يسيرة، حتى أن بعضهم[3] حصرها في أربع

---

(١) لمعرفة المزيد عن المجاميع النصرانية ينظر كتاب هداية الحيارى: ٢١٧ ـ ٢٣٦، وقد أخذ المصنف عنه.

(٢) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ [البقرة: ١٧٨].

(٣) هو القاضي أبو علي حسين بن محمد بن أحمد المروروذي الشافعي من كبار فقهاء الشافعية كان يلقب بحبر المذهب أو حبر الأئمة، توفي سنة ٤٦٢هـ. طبقات الشافعية الكبرى: ٣٥٦/٤، وفيات الأعيان: ٤٠٠/١، طبقات الشافعية: لابن هداية الله: ١٦٣ ـ ١٦٤.

قواعد، وهي: اليقين لا يزول بالشك. الضرر يزال لا بضرر. المشقة تجلب التيسير، العادة محكمة[1]. وبيان اندراج جميع المسائل الفروعية في هذه القواعد مذكور في الكتب المفصلة المشتملة على أحكام الشريعة.

هذا مع ما فيها من السهولة واليسر وعدم الحرج، فهي الحنيفية البيضاء التي ليلها كنهارها، فالحمد لله على هذه النعمة العظمى، وللمفسرين كلام يناسب المقام ذكروه في آخر سورة البقرة[2].

○ بيان أن دين الإسلام ناسخ[3] لما عداه من الأديان:

اعلم أن ما جاء به نبينا ﷺ من الدين المبين، منه أصول ومنه فروع، والثاني[4] مشتمل على أحكام تخالف أحكام الأديان السابقة [٣٢/أ]، ومنها ما لم تخالفه، فالمخالفة ناسخة لمخالِفِها بلا ريب، كما أن غير المخالف ليس بناسخ.

والكلام على حقيقة النسخ وما أورده المخالفون فيه[5] مفصل في كتب أصول الفقه وسيأتي شيء منه إن شاء الله تعالى.

---

(١) قال السيوطي بعد أن ذكر القواعد الأربعة هذه: (وضم بعض الفضلاء إلى هذه قاعدة خامسة وهي: الأمور بمقاصدها). الأشباه والنظائر: ٢٠، ثم جاء العز بن عبدالسلام رحمه الله فردها إلى قاعدة واحدة وهي: (جلب المصالح ودرء المفاسد). ينظر كتابه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) وردها بعض العلماء إلى جلب المصالح فقط، لأن درء المفسدة في حقيقته؛ جلب مصلحة.

(٢) ينظر: تفسير الطبري: ١٢٤/٦ وما بعدها بتحقيق محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر، تفسير القرطبي: ٥٨٦/٢ ـ ٥٨٧، تفسير ابن كثير: ٣٢٣/١ ـ ٣٢٤.

(٣) ينظر الهامش رقم ١ ص ٤٠٤.

(٤) أي: الفروع.

(٥) أجمع المسلمون على جواز النسخ عقلاً ووقوعه سمعاً، ولم ينكره من أرباب الشرائع إلا اليهود فإنهم انقسموا إلى ثلاث فرق. فذهبت الشمعونية إلى امتناعه عقلاً، وقالت العنانية: يمتنع سمعاً لا عقلاً، وقال العيسوية بجوازه عقلاً ووقوعه سمعاً، واعترفوا بنبوة محمد ﷺ ولكن إلى العرب خاصة لا إلى الناس كافة. الإحكام للآمدي: ١٠٦/٣، المدخل: ٩٧، تقريب الوصول: ١١٤، ميزان الأصول: ٩٨٣/٢.





ونحن نبيِّن في هذا المقام على سبيل الإجمال؛ ما توافقت عليه الأنبياء والرسل، ولم يصح الاختلاف فيه، وبيان ما يقع فيه التخالف ويمكن جريان النسخ فيه، فنقول وبالله التوفيق:

اعلم أن أحكام الشرع ومقاصده على ضربين: ضرب ضروري، وضرب[1] في كل ملة ودين من لدن آدم عليه السلام إلى بعثة محمد ﷺ، ولم يجعل سبحانه النسخ يتطرق هذا الضرب، ولا أن الشرائع تختلف فيه[2].

وضرب تختلف فيه الشرائع والأديان، ويتطرقه النسخ.

أما الأول[3]: فستة أنواع[4]:

النوع الأول: حفظ الدين:

فكل ملة كُلِّفَ أهلها بتوحيد الله وإفراده بالعبودية وحده، وتصديق ما جاء به الرسل، والانقياد إلى ذلك قولاً وفعلاً واعتقاداً[5]، قال عز اسمه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال:

(١) قوله: (وضرب) كلمة زائدة سهواً وأصل العبارة (ضرب ضروري قد اعتنى الله به إلخ) لأن المصنف قسم أحكام الشرع ومقاصده على ضربين فذكر هنا؛ الضرب الضروري، وسيأتي الثاني عند قوله: (وضرب تختلف فيه الشرائع).

(٢) ينظر: الموافقات: ٩٧/٣، المسألة الرابعة: هل تنسخ الكليات. فصل: الإحكام والتشابه.

(٣) أي: الضرب الأول، وهو؛ الضروري.

(٤) ذكر المتقدمون خمسة، قال الشوكاني: (وقد زاد بعض المتأخرين سادساً وهو حفظ الأعراض، فإن عادة العقلاء بذل نفوسهم وأموالهم دون أعراضهم، وما فدي بالضروري فهو بالضرورة أولى، وقد شرع في الجناية عليه بالقذف: الحد، وهو أحق بالحفظ من غيره) إرشاد الفحول: ٢١٦.

(٥) جعل المصنف الحكم الشرعي ومقصد الشارع ـ في هذا النوع ـ واحداً، وفرق بينهما في الأنواع الأخرى، وقد ذكر العلماء أن الله شرع الجهاد لحفظ الدين وكذلك قتل المرتد وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته. روضة الناظر: ٨٧، المدخل: ١٣٨، إرشاد الفحول: ٢١٦.

﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا [مِن][1] قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥].

النوع الثاني: حفظ النفوس:

فإن الله تعالى حرم القتل بغير حق شرعي في كل ملة، ثم لما اشتد باعث الغضب على قتل كل شخص عدوَّه لم يكتف الشارع في منع القتل بالوازع الأخروي، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣] بل شرع فيه مع ذلك من الزواجر الدنيوية ما هو أعلاها [ب/٣٣] وهو قتل القاتل، وبه انفكت الأيدي العادية بدليل: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: ١٧٩].

النوع الثالث: حفظ العقل:

وهو ملاك الدين والدنيا، وقطب دائرة الخيرات والمصالح بأجمعها، فالقدر المسكر حرَّمه الله في كل ملة، ولما اشتد باعث الشهوة على شربه شرع سبحانه الحد زيادة على الزجر الأخروي.

النوع الرابع: حفظ النسب:

وهو الذي لولاه لما قام الرجال بالأطفال الصغار، لاختلاط أنسابهم ووجود الجهالة فيها، فكان يبقى أمر الأطفال موكلاً إلى النساء الوالدات وهن في الأغلب عاجزات عن أنفسهن، فكيف عن أولادهن، فكان يؤدي ذلك إلى ضياع الأطفال ديناً ودنيا، وإلى انقطاع النوع الإنساني أو ما يقرب إلى الانقطاع، فلهذا حرم الزنا وما في معناه من اللواطة[2] في كل شريعة.

---

(١) سقطت من الأصل سهواً.

(٢) هذا الفعل القبيح لا يؤدي إلى اختلاط في الأنساب، فالأولى أن يذكره في حفظ الأعراض. ومما ينبغي أن ننبه عليه؛ أن هذا الفعل ذُكِرَ باسمه الصريح في القرآن الكريم (إتيان الذكران) وذُكِرَ منسوباً لفاعليه في السنة (عمل قوم لوط) وورد في أحاديث ضعيفة باسم اللواط، وفيه نسبة إلى نبي الله لوط وهو مما لا ينبغي، وجريان كثير من العلماء على هذه التسمية خطأ، والله أعلم.



هذا مع ما في التوثب على الفروج بالتغلب من التهاجر والتقاتل والتناجز.

ثم لما كان باعث الشهوة فيه أشد منه في شرب المسكر شرع فيه سبحانه من عقوبة الحد الدنيوي فوق حد المسكر.

النوع الخامس: حفظ المال:

وهو الذي به قوام الحياة، وحفظ المعاش، فلهذا حرم الغصب والسرقة وما في معناهما في كل ملة، ثم شفع سبحانه تحريم أخذ المال باطلاً بإلزام غرمه وبقطع يد السارق والمحارب وبعقوبة الغاصب ونحو ذلك، ردعاً لقوة الشهوة والحسد والشح، الحاملة على أخذ المال بغير حق.

النوع السادس: حفظ الأعراض:

وهي التي فيها صيانة الدين والدنيا، فلهذا حرم القذف والغيبة في كل ملة، ثم لم يكتف سبحانه بذلك [٣٤/أ] بل زاد حد القاذف وعقوبة المغتاب، ردعاً للقوة الباعثة على التشفي باللسان والتفكُّه في المجالس بإظهار المثالب ومؤانسة أهلها بأعراض الإخوان.

والمصلحة في حفظ الدين أخروية فقط[1]، وفي حفظ العقل جمعت

---

(١) في هذا نظر؛ فإن في حفظ الدين مصلحة دنيوية وأخروية ـ وإن كانت الأخروية أعظم ـ لأن الله تعالى أناط صلاح الحياة الدنيا بصلاح الدين، وفي ذلك من الآيات والأحاديث الصحيحة ما لا يخفى، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥]، وآيات إهلاك الأمم لما ضيعوا الدين وعصوا الرسل وغضب الله على بني إسرائيل ونجاة المرسلين ومن آمن معهم من الحجج الواضحة على أن حفظ الدين مصلحة دنيوية وأُخروية، ومن الأحاديث ـ وهي كثيرة ـ قوله ﷺ: **«إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد: سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»** رواه أبو داود. مختصر السنن للمنذري: ٩٩/٥ رقم ٣٣١٧. والبيهقي ٣١٦/٥ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ١٥/١ رقم ١١. فمن الغفلة والقصور بمكان إغفال هذا المقصد العظيم وعدم التنبيه عليه وترك الاهتمام به بما يتناسب مع أهميته.

بين مصالح الدنيا والآخرة، فإن من ذهب عقله لا يبالي بمعرة[1] الآخرة، وفيما سواها دنيوية فقط.

وحكم الترتيب في هذه الخمسة: أن حفظ الدين مقدم، ثم النفس، ثم العقل، ثم النسب ثم المال والعرض وهما في رتبة واحدة، ومنهم من يقدم العرض على المال[2].

وأما الضرب الثاني من أحكام الشرع؛ فهو ما عدا الأنواع الستة السابقة، وفيه تختلف الشرائع والملل وفيه يقع النسخ، وذلك كالصلاة والصوم، وسائر ما اشتملت عليه كتب الفروع.

شبه المنكرين للنسخ والرد عليها:

ذهب كثير من المنكرين لنبوة محمد ﷺ كاليهود وأضرابهم؛ إلى إنكار النسخ في الأحكام الشرعية، وامتنعوا من تصديقه لما تضمنته شريعته من نسخ بعض الأحكام التي في شريعة موسى عليه السلام؛ وزعموا أن النسخ محال[3]، وتمسكوا في إحالته؛ بأن النسخ يستلزم البداء[4] وهو ظهور ما لم يظهر أولاً في الحكم الشرعي من مراعاة مصلحة أو درء مفسدة، وذلك جهل والجهل على الله تعالى محال[5]. ومنهم من اعتمد في إحالته على

(١) المعرة: الإثم. الصحاح: ٧٤٢/٢ مادة (عرر).

(٢) وهو الصواب؛ لأن المال والنفس يُبذلان لحفظ العرض، وقد تقدم قول الشوكاني: (وما فدي بالضروري) إلخ، ولأن المفاسد المترتبة على فوات العرض أعظم ضرراً من المفاسد المترتبة على فوات المال، وغيرة المرء على عرضه أكبر من حسرته على فوات ماله. والله أعلم.

(٣) ذكر ابن حزم فرق اليهود ثم قال: (ثم انقسم اليهود في جملتهم إلى قسمين: فقسم أبطل النسخ ولم يجعلوه ممكناً، والقسم الثاني: أجازوه إلا أنهم قالوا: لم يقع) الفصل: ١٠٠/١.

(٤) البداء في اللغة: الظهور، وبدا له في هذا الأمر بداء، بالمد، أي: نشأ له فيه رأي، وهو ذو بدوات. مختار الصحاح: مادة (بدا) وفي الاصطلاح كما ذكره المصنف. وقال الجرجاني: (ظهور الرأي بعد أن لم يكن) التعريفات: ٤٣، وينظر: الإحكام: للآمدي: ١٠١/٣، والبداء من عقائد الإمامية.

(٥) ممن ذكر هذه الحجة السمرقندي في ميزان الأصول: ٩٨٣/٢، وذكر ابن حزم حجة غير=



النقل فقالوا: إن موسى عليه السلام نص على أن شريعته لا تنسخ، وأنه قال: تمسكوا بالسبت أبداً. والرد على من أحال النسخ لما يلزم فيه من البداء[1]، أنه يقال له: ما تعني [ب/٥٣] بالبداء؟ إن عنيت به أن الله تعالى ظهر له من الحكمة ما كان خافياً عليه عند شرع الحكم الأول ولذلك نسخه، فلا نسلم لزوم ذلك في النسخ، فإنه لو استلزم تصرفه تعالى في أفعال عباده بمنع ما أطلقه في وقت وإطلاق ما منعه في وقت البداء كما زعمتم لاستلزمه تصرفه تعالى فيهم بأفعالهم من نقلهم من الصحة إلى المرض ومن المرض إلى الصحة ومن الغنى إلى الفقر ومن الفقر إلى الغنى و[من][2] الحياة إلى الموت، إلى غير ذلك مما لا ينحصر، فإذا لم يدل الثاني على البداء اتفاقاً بيننا وبينكم فكذلك الأول، كيف ومن المعلوم لكل عاقل؛ أنه لا يمتنع في الحكمة أن يأمر الحكيم مريضاً باستعمال دواء في وقت ثم ينهاه عنه في وقت آخر لعلمه بما يصلح له في الحالين، لا لأنه بدا له وظهر له خلاف ما لم يظهر أولاً، فلم لم تجعلوا أحكام الله تعالى التي نسخها على هذا النحو[3].

وإن من الحكمة مثلاً: نهيه سبحانه عن القتال في أول الإسلام لقلة المسلمين، وإيجابه بعد ذلك لكثرتهم.

هذا إذا تنزلنا إلى القول باعتبار الصلاح والأصلح على سبيل

= هذه لمنكري النسخ من اليهود فقال: (وعمدة من أبطل النسخ؛ أن قالوا: إن الله تعالى يستحيل منه أن يأمر بأمر ثم ينهى عنه، ولو كان كذلك لعاد الحق باطلاً والطاعة معصية والباطل حقاً والمعصية طاعة) ثم رد عليهم رداً سيذكر المصنف بعضه. الفصل: ١٠٠/١، وينظر: تفسير القرطبي: ٥٥٢/١، الأجوبة الفاخرة: ٨٩ ـ ٩٢.

(١) في الفرق بين النسخ والبداء قال ابن حزم: (البداء هو أن يأمر بالأمر والآمر لا يدري ما يؤول إليه الحال، والنسخ هو أن يأمر بالأمر والآمر يدري أنه سيحيله في وقتِ، كذا، ولا بد) الإحكام: ٦٨/٤، وينظر: الأجوبة الفاخرة: ٩٠.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) قارن هذا بما في الفصل: ١٠٠/١ من قوله: (لأن من تدبر أفعال الله، إلى قوله: ويمنح من شاء ما شاء من الأخلاق الحسنة والقبيحة)، وينظر: الإحكام لابن حزم: ٦٧/٤ ـ ٧١.

الجدل[1]، وبيان فساد قول الخصم ولو على أصله الفاسد، الذي به يتمسك في هوسه، وإلا فمعتقدنا الذي أجمع عليه أهل الحق، ودل عليه العقل والنقل؛ بطلان التحسين والتقبيح العقليين في أفعال الله تعالى وأحكامه وعدم وجوب مراعاة الصلاح والأصلح[2] الذي ينشأ عنهما ما يخلطون به من لزوم البداء، وأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ثم نقول لليهود:

وقوع الخارق على وفق دعوى المتحدي مع العجز عن معارضته لا يخلو إما أن يدل على صدق مدعي الرسالة أو لا.

فإن لم يدل؛ لزم أن لا تقوم دلالة على صدق موسى عليه السلام، إذ وجه الدلالة في الجميع واحد [٣٦/أ].

وإن دل؛ وجب تصديق نبينا ﷺ وتصديق كلمة الله عيسى عليه السلام.

وأما النسخ الذي أنكروه؛ فهو لازم في شرعهم أيضاً، فإنه قد ثبت من نص التوراة:

إن الله تعالى قد قال لنوح عليه السلام حين خرج من السفينة: إني جاعل على كل دابة مأكلاً لك ولذريتك، وأطلقت لكم ذلك كسائر العشب ما خلا الدم.

وقد حرم بعد ذلك في التوراة أشياء كثيرة.

وفي التوراة أيضاً:

أن من شريعة آدم عليه السلام: جواز نكح الأخت[3].

---

(١) الأجوبة الفاخرة: ٩١ ـ ٩٢.

(٢) من عقائد المعتزلة؛ أن فعل الصلاح والأصلح واجبان على الله تعالى، وأن الحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل، ومذهب أهل السنة ما ذكره المصنف. ينظر: الملل والنحل: للشهرستاني: ٥٦/١، النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد: محمد محيي الدين عبدالحميد: ١٥٦ ـ ١٦٠.

(٣) ينظر: ميزان الأصول: ٩٨٤/٢. الأجوبة الفاخرة: ٩٠.





وقد حرموا ذلك.

وقد كان من شرع يعقوب عليه السلام: الجمع بين الأختين، وقد حرموه. وقد كان العمل في السبت قبل شريعة موسى مباحاً ثم حرمه موسى[1]، ولم يكن الختان واجباً لذوي الأولاد، وقد أوجبوه.

وأما دعوى أن موسى عليه السلام نص على أن شريعته لا تنسخ، فهذا كذب وزور لا شك[2]،.وهو مما لقنه لهم ابن الراوندي[3]، وقد كان يُعلِّم الفِرَقَ؛

---

(١) ينظر: المصدر السابق: الصفحة السابقة، كشف الأسرار: ٢/١٥٩، الأجوبة الفاخرة: ٩١.

(٢) قال الإمام أبو بكر محمد بن أحمد السمرقندي (ت ٥٣٩هـ): (أما قولهم رواية عن موسى ـ عليه السلام ـ: لا نسخ لشريعتي. إن كان بطريق التواتر فهناك محذوف، أي: لا نسخ لشريعتي إلى مبعث محمد ﷺ، لأنه ثبت رسالة محمد ﷺ بما ثبت به رسالة موسى ـ عليه السلام ـ ويثبت به نسخ شريعته، فوجب القول بالحذف عملاً بالدليلين. وأما ما رووا: تمسكوا بالسبت ما دامت السموات والأرض فنقول: لا يمكن العمل بظاهره، فإن التكليف بالسبت ينقطع بانقراض الدنيا والسموات والأرض قائمة، ولكن هو كناية عن الأبد في عرف أهل اللغة، كأنه قال: تمسكوا بالسبت أبداً ـ ثم يزاد عليه؛ أي أبداً ما لم يبعث محمد ﷺ. حتى يكون عملاً بالدلائل) ميزان الأصول: ٢/٩٨٧.

قلت: رد المصنف أولى بالقبول من رد السمرقندي، وقد أوردته ليُعلم ما فيه من خلل، ومن أفحش ما فيه قوله (عملاً بالدلائل) وهذا يقتضي أن نقل اليهود من الدلائل، ولا يخفى بطلانه، وكذلك قوله:

(إن كان بطريق التواتر) فأي تواتر يثبت عند قوم شهد الله على كذبهم وتحريفهم، وقد نقل القرافي أن نص التوراة فيها: (لو ياسور وشبيط ميهوذا ومحوقيق مبين رغلا) قال: (وتفسيره: لا يزال المُلك في اليهود من آل يهوذا، والراسم من ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح) ثم قال: (وهذا دليل قاطع على نبوة عيسى ـ عليه السلام ـ، وأن موسى ـ عليه السلام ـ أخبرهم أنهم يكونون في ذلك الوقت على باطل) الأجوبة الفاخرة: ١٠١ ـ ١٠٢، وانظر: هداية الحيارى: ١٤٣.

(٣) هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي نسبة إلى راوند قرية من قرى قاساه المجاورة لـ(قم) بنواحي أصبهان، وهو من مشاهير الزنادقة (ت ٢٤٥هـ). وقد أخطأ ابن خلكان حين ذكره ولم يبين ضلالاته بل عدّه من الفضلاء، وذكره ابن النديم ولم يبين حاله. ترجمته في المنتظم: ٦/٩٩، وفيات الأعيان: ١/٩٤، الفهرست: ١٠٨.

الشُّبه[1]، طلباً للدنيا والرياسة، ولا يخفى كذب هذا النقل[2]، إذ لو كان حقاً لما ظهرت المعجزة على يد عيسى ولا على يد نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، كما لم تظهر على يد أحد بعد نبينا، إذ قال: «**لا نبي بعدي**»[3].

وأيضاً؛ لو كان ذلك النقل حقاً لكان أولى الأزمنة بذكره والاحتجاج به؛ الزمان الذي دعاهم فيه النبي ﷺ، وقد بالغوا إذ ذاك في إخفاء نوره جهدهم حتى غيَّروا صفته، ولم يحتج أحد منهم بذلك في زمانه مع شدة حرصهم عليه وتوفر الدواعي على نقله لو كان موجوداً حقاً.

○ في حكم استصحاب شرع من قبلنا:

اعلم أن الأفعال في شريعة محمد ﷺ بالنسبة إلى أحكام الشرائع [ب/٣٧] التي قبله تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم مخالف حكمه في شرعنا لما قبله، فلا شك أنه ناسخ له.

وقسم موافق لأحكام من قبله، فلا شك أنه لا نسخ فيه وأنّا متعبدون فيه إما بشرعنا فقط، بناءً على عدم شمول شرائع من قبلنا لنا، وإما بشرعنا وشرع من قبلنا، إن قلنا: بأنا مكلَّفون بشرع من قبلنا في كل ما لم يُنسخ في شرعنا ولا شرع من قبلنا.

القسم الثالث: ما سُكِتَ عنه في شرعنا وثبت فيه حكم بشريعة من قبلنا، فهل نكلَّف بهذا القسم بالحكم الذي يثبت فيه في غير شريعتنا أم لا[4]؟

---

(١) قال أبو الحسن الزيدي (ت ٤٢١هـ): (صنف ابن الراوندي «الفريد» في الطعن على نبوة نبينا ﷺ والقدح في معجزاته.. وصنف «التاج» في قدم العالم و«الزمرد» في إبطال النبوات) إثبات نبوة النبي ﷺ: ٣٧.

(٢) ينظر ما كتبه ابن حزم عن وجوه النقل عند المسلمين في كتابه: الفصل: ٨١/٢ وما بعدها.

(٣) قال العلامة الألباني: (صحيح متواتر) ينظر إرواء الغليل: ١٢٧/٨ ـ ١٣٠ رقم ٢٤٧٣، وأما ما روي عن أنس مرفوعاً: «**أنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي إلا ما شاء الله**» ففيه محمد بن سعيد المصلوب في الزندقة. القرطبي: ٩٦/١.

(٤) اختلف العلماء في هذا القسم على أربعة أقوال:



في ذلك خلاف بين العلماء، وتحرير محل النزاع مفصل في كتب الأصول، وفي الباب الثالث من كتاب (إظهار الحق) كلام مفيد في إثبات النسخ وأن الشريعة المحمدية ناسخة لما قبلها من الشرائع.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

آخر الكتاب بعون عناية الله.

كان الفراغ من كتابة هذه الرسالة يوم السبت عند الزوال لسبع خلون من ذي القعدة الحرام من السنة التاسعة عشرة بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة المباركة، وذلك على يد مؤلفها المستعين بالله محمود شكري بن عبدالله بن أبي الثناء شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي.

والحمد لله على نعمه. [٣٨/أ].

= القول الأول: أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا. وهو رواية عن الإمام أحمد وقول عند الشافعية، وإليه ذهب ابن حزم وأبو إسحاق الشيرازي في آخر قوليه، واختاره الغزالي في آخر عمره. وقال ابن السمعاني: إنه المذهب الصحيح، وكذا قال الخوارزمي. وبالغت المعتزلة فقالت باستحالة ذلك عقلاً، وقال غيرهم: لا يحيله العقل ولكنه ممتنع شرعاً. واختاره الفخر الرازي والآمدي. الإحكام: لابن حزم: ١٦٠/٥ ـ ١٨٧، روضة الناظر: ٨٢ ـ ٨٣، الإحكام للآمدي: ١٢٣/٤، المدخل: لابن بدران: ١٣٤ ـ ١٣٥.

القول الثاني: أنه شرع لنا إلا ما نسخ منه. وهو رواية عن أحمد اختارها التميمي، وقال القاضي أبو يعلى وغيره: بمعنى أنه موافق لا متابع. ونقل ابن السمعاني هذا القول عن أكثر الحنفية وأكثر الشافعية وطائفة من المتكلمين. وحكي عن محمد بن الحسن واختاره ابن الحاجب ونسبه القرطبي إلى معظم أصحاب مالك. وقال شيخ الإسلام أنه: (قول عامة السلف وجمهور الفقهاء) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧١، روضة الناظر: ٨٢ ـ ٨٣، إرشاد الفحول: ٢٤٠، المدخل: ١٣٤ ـ ١٣٥.

القول الثالث: التوقف. حكاه القشيري وابن برهان. إرشاد الفحول: ٢٤٠.

القول الرابع: التفصيل: إذا بلغنا شرع من قبلنا على لسان رسول الله ﷺ أو لسان من أسلم كعبدالله بن سلام وكعب الأحبار ولم يكن منسوخاً ولا مخصوصاً، فإنه شرع لنا. وممن ذكر هذا القرطبي واستحسنه الشوكاني. إرشاد الفحول: ٢٤٠.